"الكتاب الفائز بجائزة البلقان الأدبية عام 2012"

فريق متميزون E-BOOK

القزم

ألكسندر بروكوبييف

ترجمة: ليلى البدري
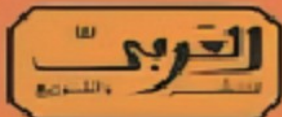
قصص قصيرة مترجمة

كلمه مهمة:

هذا العمل هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.
وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق -متميزون-

انضم الى الجروب

انضم الى القناة

القزم.. وقصص أخرى
قصص قصيرة مترجمة..

(الكتاب الفائز بجائزة البلقان الأدبية عام ٢٠١٢)

الكاتب: ألكسندر بروكوببييف.
ترجمة: ليلى البدري

القصة الأولى..

القزم..

«من الأفضل أن تُروى أحداث هذه القصة الخيالية في الصباح الباكر أثناء تناول حساء دسم على الإفطار وبعد ليلة طويلة من الإفراط في الشرب».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أمي، هل عدتي مرة أخرى لعلاقتك بذلك الشاب الذي يماثلني في العمر؟

آه لو لم أكن ابنك.. أنا لا أعارض وجوده بيننا. لا بد وأنه رجل صالح؛ لأنه تطوع بدفع مبلغ ٧١٤ يورو قيمة نفقات علاجي في المصحة. وبهذه المناسبة لا يفوتني أن أشكر له ما فعله معي من خير ورعايته لي، وتكفله بنفقات علاجي أثناء الفترة التي أمضيتها هناك. وعلى الرغم من أن تلك المصحة هي أبعد ما تكون عن مكان لتلقي العلاج، فهي في أحسن الأحوال لا تتعدى كونها إصلاحية للمعاقين. بالطبع أنتم تدركون الفارق. فبمجرد وصولي إلى هناك، وفي الأسبوع الأول من إقامتي بها، عوقبتُ لأنني كنت أستمع «للووكمان» الخاص بي في الفترة ما بين الساعة ١٥:٠٠ و ١٧:٣٠ المسماة بساعات الراحة. كيف يتسنى لي أن أعرف أن الموسيقى المنبعثة من جهاز «الووكمان» الخاص بي قد تصبح مصدر إزعاج لأحد؟ لكن على كل الأحوال تم الإمساك بي. وقررت تلك المديرة، السيدة «كيراكا» أن تعاقبني بالحبس لمدة يومين وليلتين كاملتين داخل «بدروم» فارغ تمامًا من أي شيء إلا من كرسي وحيد مثبت في الأرض، وهذا بعد أن تم تقييدي وتسليط أضواء كاشفة قوية على وجهي.

هل لكِ أن تتخيلي يا أمي شعوري حينها؟ خصوصًا مع ذلك الضوء الذي اخترق عيني كالإبر، وهذا الحبل السميك المحكم الذي أحاط بي وأصاب جسدي بالألم؟ شعرت بالاضطراب داخل تلك الغرفة المروعة الخالية من أي نافذة والمغلقة بباب حديدي.

لا عجب إذًا في أن يطلق الأطفال المقيمون بالمصحة على هذه الحجرة اسم «الغرفة الملعونة». ففي تلك الغرفة لن يستغرق الأمر أكثر من ساعتين حتى يفقد من بداخلها القدرة على معرفة ما إذا كان الوقت بالخارج نهارًا أم ليلًا. ما إذا كانت الناس بالخارج تتحرك في وضح النهار أم أنهم غارقون في سبات عميق ويحلمون بسلام في سكون الليل.

بعد مرور وقت طويل، وبشع، ومرير على وجودي داخل هذه «الغرفة الملعونة»، حرَّك أحدهم الغطاء الذي يغطي ثقب الباب الحديدي وبدأ يحدِّق في وجهي. كان بإمكانك لو كنت مكاني أن تشعر بنظرته الباردة المستهزئة لكنك للأسف لن تتمكن من تحديد هويته لأن عينيك قد أصابهما العمى بسبب تلك الدوائر الخضراء التي تسبب فيهم الضوء القوي المسلط على وجهك. في مكان ما هناك بالخارج خلف ذلك الثقب الصغير، وفيما وراء ذلك المعذِّب الساخر، يوجد عالم فسيح يتحدث فيه الناس ويتحركون وفي بعض الأحيان يضحكون. ويُخيل إليك من فرط الألم، أن حتى عالم المصحة غير الجذاب المحدود والمقيد يبدو جميلًا وحرًا مقارنة بتلك «الغرفة الملعونة». نعم، عالم حر!!

لتعود بعد ذلك مرة أخرى إلى محبسك لتقضي ليلتك الثانية ويعود الضوء ليخترق عينيك بلا هوادة كسيخ محمي يشبه إلى حد كبير سكين الجزار. وقبل مرور وقت طويل.. طويل جدًا، تنتابك في النهاية نوبة من الصراخ والعويل كالمجانين. هذا المخبول الذي يصرخ هو أنت. سيظل يصرخ بصوت عالٍ. ويعوي بصوت مبحوح لم تسمعه في حياتك من قبل سوى مرتين: مرة عند ولادتك، والثانية وأنت في الحمام. فُتح الباب. وبدأت أسمع صوت خطوات مديرة المصحة السيدة «كيراكا» وهي تقترب. يمكنني التعرف عليها من صوت خطواتها المميز ولكنني لا أستطيع بالطبع أن أراها بسبب هذا الضوء القاتل.

تقترب منك وأنت تعلم أنها تنظر إليك بازدراء. تبدأ بالتخمين فيما إذا كانت ترتدي كعادتها بنطلونها الأسود ومعطفها الأسود المغلق بعناية. فجأة تجدها واقفة أمامك مرتدية لمعطفها وياقة قميصها ناصعة البياض المكوية تظهر من تحته. لتسمع صوتها بعد ذلك وهي تتحدث إليك.

أمي الحبيبة! إن كان هناك من تولى رعايتي منذ مولدي فهو أنتِ! على الرغم من مفاجئتي لكِ بطريقة غير سارة لحظة ميلادي! للدرجة التي لم تستطيعي معها أن تعترفي ولو حتى لنفسك بأنني طفلك. وكيف ذلك؟ وقد قُدِّر لكِ أن تحملي بين يديك قزمًا رضيعًا جسده الصغير مغطى بالكامل بشعر أسود لطالما أثار غثيانك وأنت ما زلتِ تحملينه في رحمك. يمكنني أن أتخيل مدى الصعوبة التي مررت بها وأنت تحملينى في رحمك. ومدى صعوبة المشهد وأنتِ تريني لأول مرة وأنا أخرج منكِ كفأر مبلل خرج للتو من ماسورة الصرف الصحي. حتى بالنسبة لطبيب النساء والتوليد الذي ساعدك أثناء الولادة - مع كل احترامه لجمال وجهك ومهبلك الذي لا نظير له - لم يتمالك نفسه ولم يستطع أن يمنع عينيه من الاتساع من هول الصدمة عندما رآني. وما زاد الوضع سوءًا هو سماعه لصوت بكائي المروع، والذي جزع منه كل من كان في جناح الولادة. لأنه لم يكن يشبه صوت بكاء الرضع المعتاد بل كان أقرب ما يكون إلى صوت عواء طويل أطلقه حيوان بري مجروح بسبب الألم. هذا طبيعي، أنا بالطبع لم أكن مدركًا في هذا الوقت لهول وقع الصدمة الذي تسببت فيه بسبب صوتي ومظهري لحظة الولادة.

لكن وبعد مرور ١٠ سنوات على هذه الحادثة الحزينة، وبعدما بلغت سن البلوغ، وجدتني وقد حفظت عن ظهر قلب تفاصيل هذا الحادث المروع وشعرت في عقلي الباطن كم أنا مسكين بسببه.

كعادتي بقيت في الحمام لبعض الوقت أتأمل ملامح وجهي في المرآة، وأنا أشعر بالذنب كالعادة، بسبب مظهر وجهي البشع المغطى بكل تلك البثور المتقيحة وشفتي المتورمتين بفعل بقع الجرب البيضاء المنتشرة على جانبيها، وأبعاد وجهي الضخمة الموزعة بشكل غير متجانس وترأس قمة جسدي الكسيح، وهيئتي التي تشبه هيئة مهرج السيرك. عيناي فقط كانتا تلمعان مثل لمعان عيون القطة وأنا أتأمل صورتي في المرآة بحزن. بدت نظراتي غير إنسانية، وباردة على الرغم من الغضب الهائل الذي يموج داخلي بسبب جسدي. ربما كانت كل نظراتي لنفسي قاسية على هذا النحو بسبب تلك السلسلة اللا نهائية من تجاربي البائسة التي مررت بها منذ أن كنت طفلًا رضيعًا والتي جففت الدمع في عيني من كثرة البكاء.

حينها فقط وبينما أنا واقف أمام المرآة أواجه قبحي للمرة المئة، وإذا بباعث مجهول يشتعل في صدري العليل المشوه، ليحيي بداخلي بعض الأحزان الدفينة ويحررها كوحش جامح من بين أسناني الواهنة لتنطلق على هيئة صرخة برية مدوية تلتها صرخة أخرى، وظللت هكذا حتى بدأتُ في العواء كالذئاب. كل هذا وأنا وحدي في الحمام. لحسن الحظ، أنكِ يا أمي لم تكوني متواجدة بالشقة في تلك اللحظة. فقد كنتي تستمتعين بموعدك الغرامي مع عشيقك الشاب في مقهى «الجورنال» وبالطبع كنتي غير قادرة على سماع صوت صرخاتي الهمجية التي تردد صداها في أرجاء الشقة طلبًا للمساعدة.

سامحيني يا أمي! سامحيني، على قبحي، سامحي ذلك اللا شيء والتفاهة والنتانة المنبعثة من هذا الكائن البشري الفاشل الذي يتجرأ ويطلق على نفسه اسم ابنك!

لم يختلف وضعي كثيرًا في «الغرفة الملعونة» عمَّا أنا عليه الآن في «المرحاض»، فقد بدأت بذرف دموع - لا نهاية لها - متبوعة بعويلي ونحيبي المريع. حينها سألتني «كيراكا» - وأنا أتصرف كالمجنون ووجهي كله ملطخ بالدموع والمخاط - بصوت هادئ تمامًا:

- لماذا تصرخ كثيرًا هكذا؟

أجبتها وأنا غير قادر على رؤية ما وراء هذا الضوء السادي الذي يخترق عيني:

- أرجو المعذرة يا آنستي.

قاطعتني بقولها:

- أنا لستُ « آنسة».

أجبتها وأنا أبكي:

- ولكنك المديرة.

هل لكِ أن تتخيلي يا أمي إلى أي مدى شعرت بالتعاسة والبؤس والاكتئاب؟ وكم كان نضالي مريرًا من أجل أن أجفف دموعي وأكبت أية صرخة قد تخرج من فمي. لقد حاولتُ جاهدًا لكنني فشلت. فصرخت من الداخل ومن الخارج. وعندما تمكنت في النهاية من رؤية عينيها وهي تتفحصني بانتباه وثبات، انتابني شعور بأنها تريد أن تظهر نزعة التسيد والسيطرة، حينها شعرت بالتعاسة والبؤس، وبأنني قد عوقبت بشدة.

- لقد نلت ما تستحق من العقاب. والآن عليك أن تتحمل البقية وأن تتوقف عن التلوي مثل الدودة!

لقد بدت «كيراكا» وكأنها قادرة على قراءة أفكاري الحمقاء، مما جعل وقع الجملة علي أكثر قسوة الآن لأنني ضعيف للغاية لدرجة أنني لم أستطع أن أدافع عن نفسي وأن أمنعها من إيذائي.

هكذا كان حالي في المصحة؛ ضعيف وبائس. لكن حتى وأنا في أشد حالات الانحطاط والضعف، كنت أصب وابل لعناتي على «كيراكا». وحتى عندما رحلت وتركت الغرفة الملعونة، ظلت آثار اللا مبالاة والقسوة اللتان تتسم بهما تملأ المكان. أقسمت لنفسي حينها مئات المرات أن أثأر لنفسي منها.

هذا هو الثمن الذي يجب على أصحاب الأرواح المعذبة أن ينتزعوه من معذبيهم. ماذا يمكن لقزم مثلي أن يفعل غير ذلك؟ قزم يشبه «كوازيمودو»؛ تم إخضاعه من قِبل «كيراكا» تلك بقوة الامتهان القهري اللا نهائي. عندما ألقت بي داخل هذه «الغرفة الملعونة»؟ التي كلما أردت أن أرفع عيني وأنا فيها صوب السماء لكي أصلي، يجلدني هذا الضوء الصناعي المسلط على عيني ليعيدني لحالة الخضوع والاستسلام التي كنت عليها. وكلما حاولت أن أتنهد، لكي أخفف ما أشعر به من ألم، فإذا بهذا الحبل السميك المحكم الذي يطوقني يحفر بصورة أعمق داخل صدري. أنا أعلم يا أمي أنكِ حتى في مثل تلك الساعات البشعة لطالما كنتِ قادرة على أن تخلصي نفسك من كل تلك الأفكار الشريرة التي تدور في رأسي وأن تتغلبي على كل مشكلاتك عن طريق احتفاظك بهذا السلام الداخلي الذي يملأ صدرك. أما أنا فأبعد ما أكون عن فضائلك!

ثابرت وجاهدت نفسي فيما تبقى لي من وقت أكافح فيه تحت وطأة هذا العذاب المهين. ظللتُ هكذا طوال الليلة الثانية على الرغم من أنني لم أعد أعي كم مر علي من وقت. وعندما دخلوا إلى الحجرة لكي يخبرونني بأن كل شيء قد انتهى وأن ساعة رحيلي من الغرفة قد حانت وقاموا أخيرًا بفك وثاقي، بقيت ببساطة جالسًا في مقعدي كما لو كنت محبوسًا داخل شرنقة؛ مرتبك وغير قادر على تحريك عضلاتي على الرغم من أن الحبل الذي كان يقيدني قد أزيح وتُرِك الباب مفتوحًا أمامي. أنا فقط لم أستطع أن أتحرك. في تلك اللحظات شعرت وكأنني أصبحت أعمَى وأصم؛ شعرت وكأنني ميت.

لملمت شتات نفسي، ووقفت على قدميّ، وتركت الغرفة وقد ارتسمت على شفتَي ابتسامة. منذ ذلك اليوم، وأنا أتصرف كمريض نموذجي: من الخارج أبدو مطيعًا ومستسلمًا، بينما عقلي يفكر في الانتقام.

لقد نُحت في ذاكرتي كيف كنتِ تراعينني وأنا طفل صغير.. صغير للغاية، فقد كنت أصغر بخمس مرات من كل الأطفال في مثل عمري ورفضت أن أنمو أكثر من ذلك. لقد كنتِ دومًا ترعينني في كل الأوقات. وكنت أراكي وأنتِ ممزقة ما بين التزاماتك وواجباتك نحوي وما بين عشيقك ولكنك كنت دومًا تنجحين في الحفاظ على هذا التوازن بيننا ولم تيأسي يومًا أو تستسلمي على الرغم من كل الصعاب.

ولهذا السبب، يا أمي الحبيبة، أنا سعيد بشدة لأنك قد وجدتي أخيرًا الرجل الذي يليق بك. فهو شاب. قوي البنية. فحل! عندما قدمتيه لي لأول مرة، كان علي أن أعترف بأنني قد شعرت برغبة شديدة في قضم قطعة من وجهه الوسيم. لأنه كان جذاب بصورة لا تقاوم. فهو يتمتع بعينين سوداوين لامعتين، وأسنان برّاقة ظهرت واضحة عندما رسم على وجهه ابتسامة عريضة، وبدقة طابع الحسن الساحرة في ذقنه الذكورية. لكم تمنيت أن أمزق هذا التناسق الفتّان بأسناني حتى أحيله إلى كومة دموية وأذبح تلك النزعة الذكورية المتغطرسة لهذا الشاب المتأنق. ماذا يمكنني أن أقول عن طوله؟ فهو يقتلني بطوله هذا، يا أمي. يقتلني! لدرجة أنني قد تملكتني رغبة محمومة في أن أقصر ساقيه الطويلتين الرائعتين هاتين. في الحقيقة، لقد شرعت بالفعل في التخطيط لكيفية تطبيق ذلك. فشخص قبيح وبشع وحقود مثلي من السهل أن تنحرف روحه نحو وضع خطط جهنمية للانتقام.

تقع شقتنا بالدور الخامس داخل إحدى البنايات التي لا يوجد بها مصعد. ستعتمد خطتي على أن شخص مثل هذا الشاب المفعم بالثقة بالنفس والذي عادة ما يسير بثقة وغرور، ولا يهتم أين يضع قدميه خصوصًا أثناء زياراته المتعددة لغرفة نوم أمي - التي لا يكف فيها عن الحركة. في إحدى هذه الزيارات التي يكون فيها مستلقيًا إلى جوارك في السرير، منهمكًا في الاستمتاع بتذوق منحنيات جسدك بشهوانية وشبق ساعة تلو الأخرى.. ويقوم خلالهم بتمزيق ملابسك الداخلية السوداء (تلك الخدعة الغبية التي لا بد وأنه قد تعلمها من خلال مشاهدته للكثير من الأفلام الإباحية الرخيصة)، وبينما هو منشغل بكل ذلك سأكون أنا قد نصبت له الفخ. سأقوم بمد جزء صغير من خيط رمادي رفيع عبر أحد السلالم التي تقع بين الدورين الخامس والرابع، وأثبتها بقوة بـ»الدرابزين» من ناحية وبالحائط من الناحية الأخرى، بحيث يكون الخيط مثبتًا في موضع قريب جدًا من السلمة بحيث لا يلاحظها رجل مثله.

أنا أعلم بالطبع إلى أي مدى يكون شعور الشخص بفقدان توازنه غير سار، حيث يطير الجسد الذي فقد توازنه في الهواء، ويخفق القلب بجنون خشية ما سيقع لحظة الارتطام. الأمر كله لن يستغرق سوى بضع ثوان ولكن في هذا الوقت القصير سيكون من دواعي سروري أن أستمتع برؤية الخوف وهو يحيل جمال وجه هذا الغندور المتغطرس إلى تعبيرات ملتوية، ومضطربة، ومتألمة.

رأيته أثناء سقوطه، وقد شتم ولوَّح بذراعيه في الهواء قبل أن يُحدث ارتطامه بالسلالم صوتًا عاليًا يشبه صوت طقطقة فرع شجرة سميك عند كسره إلى نصفين. ساد موقع الحادث صمت مطبق للحظة، ظهر فيها هذا الغندور ممددًا على الدرج بساقين ملتويتين. وإذا به يحاول أن يرفع رأسه المصاب من عدة جوانب بالتصوير البطيء. بدأ في النحيب والعويل. كانت ساقه اليمنى ما زالت ملتوية، وتمزَّق بنطلونه عند الركبة وبرزت قصبة رجله المكسورة من مكان التمزق كزهرة وردية. تلتها لحظة أخرى من الصمت المطبق، امتلأ فيها صدري بدفء مبهج ومريح.. ليعلو صوت صريخه بعد ذلك. بعدها، شاهدتكِ يا أمي وأنت تهرولين إلى الأسفل على السلالم بأقصى سرعة ممكنة متجهة نحوه، كأنك تحاولين الطيران. لمستي خده المنتفخ، ووجهه غير الجذاب بمنديل أبيض. كان يبكي حينها. جثوتي على ركبتيك بجواره كجنيه طيبة وحنونة تحاولين أن تهدئي من روعه بكلمات رقيقة وحانية، وتقبلينه طوال الوقت كأنه طائر صغير مجروح وليس شابًا يافعًا مكتمل الرجولة.

انفصلت عنك مرة أخرى لأعود لسجن نفسي مرة أخرى خلف جدران قبحي وبشاعتي. وإذا بي أنزوي مرة أخرى داخل الحمام لكنك للأسف الشديد لم تلحظي غيابي. كنتِ منهمكة في محاولة مداواة جروح عشيقك، الذي لم تتوقفي ولو للحظة من الركض حوله، ولم تتوقفي عن إجراء الاتصالات بأقسام الحوادث والطوارئ بالمستشفيات وبأصدقائك، وبعد أن نقلتيه من على السُلَّم إلى سريرك لتراعيه بكل التفاني والإخلاص. أمَّا أنا فقد اشتعلت بداخلي - على الرغم من كل جهودي لمنعها - عاصفة من نيران الغيرة والحسرة التي ظلت تأكل في قلبي! فحبيب قلبك أصبح يستمتع بدوره الجديد كرجل مجروح، وهو يعلم جيدًا أنك ستتفانين في خدمته والسهر على راحته ليل نهار، بعد أن نفضت يدك من كل شيء إلا من العناية ببشرتك المخملية واستعراض مهاراتك في الطهي. أمَّا أنا فقد عانيت كثيرًا، وصرت محطمًا ومجروحًا. أصبح قلبي ممزقًا. فقد ذهبت كل جهودي سُدى،

لأنك من الآن فصاعد بدًلا من أن تتفرغي لي، أصبحت متفرغة بالكامل له وجالسة على الدوام إلى جواره لتعتني به؛ كل هذا بسبب حماقتي!

أعلم جيدًا يا أمي أنني لطالما كنت عبئا عليك منذ أن كنت جنينًا في بطنك. وعضو الحزب الشيوعي ذاك - الذي من المفترض أنه أبي - بعد أن استمتع بجسدك الرائع الفتان هذا ليلة تلو الأخرى، تخلى عنك بمنتهى الوقاحة - ودون أدنى شعور بالخجل - عندما أخبرته بأنك حامل. وقرر طردك بمنتهى الخسة والنذالة دون أن ينطق بكلمة، متناسيًا تأكيداته الجوفاء التي همس بها في أذنيك وهو يزحف بين ساقيكِ عن أنه لا يمكن أن يحيا في هذا العالم دونك. هذا الجبان الجشع، هذا الوغد صاحب «المنصب الرفيع» الذي ارتعدت أوصاله من الخوف خشية أن تؤدي علاقته بك إلى تدمير مستقبله السخيف. ابن الحرام هذا الذي تركك وحدك في الشارع، كالمشردة، أو كأي عاهرة حامل.

كم عانت روحك الرقيقة بسبب كل ذلك الظلم الذي وقع عليك! وأنت تحملين كل تلك الحقائب الثقيلة المملوءة بالكتب الموسوعية. أربع حقائب ثقيلة وضخمة تحملينها في كل يد، وتجرينهم طوال اليوم وحدك عبر الشوارع والحارات الزلقة في المدينة، لتعودي إلى البيت وأنتِ غارقة في عرقك، وأنت ما زلت تحملين تلك الموسوعات، وتجرينهم على سلالم المبنى الذي توجد به شقتنا وأنت مصرة على حملهم خمسة أدوار إلى الأعلى وخمسة أخرى إلى الأسفل، لتعاودي الكرة وتجرينهم خمسة أدوار أخرى إلى الأعلى وإلى الأسفل.. وهكذا. لكن، وعلى الرغم من كل ذلك الجهد الجبار الذي بذلتيه لكي تتخلصي مني؛ ما كان لي أن أسمح لكِ بالتخلص مني. لكن السؤال الذي يطرح نفسه الآن لماذا لم أتركك تفعلين ذلك؟ ربما لو حدث ذلك لأصبحنا نحن الاثنين أسعد وأفضل حالًا؟ أنت تستمتعين بحياتك مع عشيقك.. أو عشاقك، ربما. لأنك أكثر امرأة فاتنة رأيتها في حياتي. أمي. حتى في طفولتي المبكرة، لطالما لاحظت الطريقة التي ينظر الرجال بها إليك وهم يحاولون أن يلتهموكِ بأعينهم، وكيف كانوا يرمونكِ بابتساماتهم المغرية بكل ما تحمله من عقد ذكورية متضخمة، وكيف أن الجزء الأكثر جرأة منهم قد يغامر بإطلاق العنان لاقتراحاته شبه الغامضة عبر رفع أحد حواجبهم تحية لكِ. لكن العجيب في الأمر هو كيف تتغير تعبيرات وجوههم فجأة عندما يرونني بصحبتك، ففي الحال يتحول شعورهم بالسحر إلى شعور بالرعب. لكم شعرت بالعار يا أمي، لأنني قد تسببت لك في كل هذا الخجل والعار.. لأنني قد قللت من شأنك بوجودي معك!

أنا لا أفهم لماذا حتى الآن - وبعد مرور كل تلك السنوات من هذه الحادثة - أجد ذلك الباعث الداخلي الغبي ما زال يدفعني نحو البكاء. سامحيني، يا أمي، أعلم أن بكائي لا يشبه بكاء البشر العاديين. لكن من قال لك إنني كنت يومًا إنسانًا طبيعيًا. لقد حاولت مرارًا أن أعيش كشخص عادي، أن أجد المعنى في أشياء لا معنى لها. لكنني فشلت. فشلت حتى في قتل «كيراكا»، على الرغم من أنني خططت لكل شيء بمنتهى الدقة كما فعلت مع عشيقك. وقت تنفيذ الجريمة كان منتصف الليل، عندما كان كل المرضى والممرضات الموجودون في المصحة في أسرتهم وقبيل عودة «كيراكا» لحجرتها، بعد إتمامها لمرورها الأخير. كنت أختبئ خلف الباب في الممر المظلم المؤدي إلى الحمامات منتظرًا عودتها. وكان السلاح الذي سأنفذ به الجريمة هو «مفك طويل» كنت قد سرقته من «الجراج» عندما كنا نغسل سيارتها «الفولكس فاجن» كجزء من برنامج «العلاج بالعمل».

أخطأت في حساب شيء واحد فقط؛ طولي! فقد كنت في حاجة ماسة إلى إضافة القليل من السنتيمترات لطولي إن كنت أرغب في أن أغمد «المفك» في قلب «كيراكا». أنا أيضًا قد أغفلت حقيقة أن «كيراكا» ليست مجرد شخص عادي ولكنها المديرة. عندما انقضضت عليها، أربكها هجومي بعض الشيء لكنه لم يخفها على الإطلاق، تحركت بمنتهى الرشاقة والمهارة وكأنها كانت على علم مسبق بخطتي منذ وقت طويل، وأمسكت بي بيدها، ورفعت جسدي في الهواء ثم ألقتني على الأرض. تمكنتُ فقط من إصابة فخذها.

استطاعت بيدها الأخرى، الوصول إلى إحدى المكانس المسنودة على الحائط، وأوسعتني بها ضربًا على وجهي بكل ما أوتيت من قوة حتى فقدت الوعي. الشيء الوحيد الذي شعرت به هو نافورة الدم الدافئ التي لطخت وجهي وملأت فمي. أمَّا ما تلي ذلك فأنا أتذكره، ولكن بشكل مبهم وغير واضح؛ كان هناك رجل بوليس يسحبني بعيدًا وهو يوسعني ضربًا، وطبيب يخيط الجروح الموجودة في وجهي دون استخدام مخدر ليتركني بعدها أكثر تشوهًا مما كنت عليه.. إن كان هذا ممكنًا. ليخرج علينا بعد ذلك أحد القضاة متهكمًا:

- لقد انتهى أمرك أيها القزم! لن تجد ما تأكله سوى القذارة التي ستخلفها وراءك!

لو بادر أحدهم بسؤالي هل كنت حقًا أقيم بإحدى المصحات وهل شُفيت بالكامل، ما كنت لأعلم بماذا أجيبه.

أتذكر بشكل مشوش أنه كان هناك محام يدَّعي بأنه محامي الدفاع عني وكان يقول في مرافعته إنني ضحية للعنف وللظروف السيئة. أنا لمْ أهتم مطلقًا بما قال يا أمي، على الرغم من أنني علي أن أعترف بأنني كنت أشعر بالأسف لأنكِ لم تتمكني من حضور جلسات المحاكمة. ولكن، عندما أخبروني بعد ذلك بأنك كنت بالخارج خلال عرض قضيتي على المحكمة.. هناك بعيدًا في «بوروفيتس» لقضاء فصل الشتاء مع عشيقك، شعرت بالراحة لأنك كنت قادرة على إيجاد شيء من الراحة بعد كل تلك الفوضى المزعجة التي تسببتُ لك فيها.

وفي تلك المناسبة، كم كنت أتمنى أن أشكر عشيقك بنفسي على الهدية القيمة التي أرسلها لي. والتي كلفته ٨ يورو، هكذا يقول السعر المدون على الصندوق، على الرغم من أنني قد ركبت «البازل» الذي أرسله لي والمكون من ٢٠ قطعة في بضع دقائق لأنه كان مخصص للمستويات الأولية.

لكن لا تُقلقي نفسك؛ لأن الأمر ليس بهذا السوء الذي كنت أتوقعه. إنهم يطلقون على هذا المكان «إصلاحية الأحداث» على الرغم من أنها تذكرني بالزنزانة الحقيقية. فهي ليست بهذا السوء، لقد اكتشفت أن بداخل تلك الإصلاحية العديد من أصحاب الأقدار التي تشبه قدري، وأن هناك أولاد يتمتعون بهيئات أفضل مني قد مروا بالمصائب نفسها التي مررت بها. زنزانتي هنا تختلف عن «الغرفة الملعونة»، لأنها تحتوي على نافذة.

صحيح أنها مغطاة بالقضبان، لكنها ما زالت نافذة. فما زلت قادرًا على معرفة الوقت، ويمكنني أن أعرف إذا ما كان الجو مشمسًا، أم ممطرًا أو إذا كانت الثلوج تتساقط بالخارج. يمكنني رؤية النجوم كل ليلة ويمكنني كذلك أن أعدها بكسل وأنا أمضغ قطع البطاطس المسلوقة التي يقدمونها لنا على

العشاء. وإن مددت جسدي قليلًا يمكنني أن أرى العالم فيما وراء المؤسسة. يمكنني رؤية الناس والسيارات وهي تعبر الطريق. لقد تمكنت من رؤية قمم الأشجار المورقة بالأمس - والتي أصبحت غير مثمرة الآن -. يخبرنا القائمون على المؤسسة أن الهدف الرئيسي من إقامتنا بهذه الإصلاحية هو قتل الوقت. ليس لدي مشكلة في ذلك. يمكنني أن أعيش في هذا السجن لسنوات دون الشعور بالملل. قد يعتقد المرء أن اليوم هنا طويل وممل، لكن في الحقيقة عندما أجمع الأيام التي قضيتها هنا واحدًا تلو الأخر، أجدهم وقد أصبحوا أقصر. وبأنني راضٍ ومسرور.

الطعام حقًا قليل ولكنهم يزودوننا به بصورة منتظمة؛ ثلاث وجبات يومية بخلاف الوجبة الخفيفة. ولدينا حصة تمرينات رياضية إجبارية كل صباح في الفناء. هل تعلمين أنهم يقولون لنا: «إن العقل السليم في الجسم السليم». ربما أنجح في تقوية بدني وبناء بعض العضلات. وبالتالي قد أتحسن من الداخل.

ما هي المدة التي سأقضيها هنا؟ حتى بلوغ سن التاسع عشرة من عمري. وبعدها سيتم إجباري على مغادرة هذا المكان. ولكنني سأحاول بطريقة أو بأخرى أن أطيل فترة بقائي هنا. لقد سمعتهم يقولون إنك إن قمت بمهاجمة أحد الحراس في المصحة، سوف تقضي المزيد من السنوات هنا، لكن في هذه الحالة ستقضى المدة الإضافية في السجن الحقيقي. لستِ في حاجة إلى أن تقلقي من عودتي. اطمئني. خصوصًا بعدما أصبحت بعيدة وبأمان عن وجودي الذي لا يُحتمل، لقد جاء دورك أخيرًا في الاستمتاع بعشيقك وبكل تلك الأشياء الصغيرة التي تجعل حياة الإنسان مكتملة.

هل لكِ أن تتخيلي يا أمي؟ في إحدى جلسات المحاكمة، عندما أتى دور المديرة «كيراكا» لكي تدلي بشهادتها، بدت وكأنها تدافع عني، لدرجة أنني أردت أن أطعنها مرة أخرى «بالمفك» لأنها قالت إن السبب الحقيقي وراء ما قمت به هو أن أمي لم تحتضنني بالقدر الكافي. عـار عليها! ولم تكتفِ بذلك وحسب، بل لقد تمادت في شهادتها لدرجة أنها ذكرت والدي المزيف.. هذا المخنث عديم النفع، وبأنه هو السبب وراء برودك العاطفي معي. لقد كنت حينها ما زلت أشعر بالدوار بسبب الضرب المبرح الذي نلته على يد رجل الشرطة. وكان فمي متصلب عند الموضع الذي خاطه لي الطبيب بدون مخدر. كل ما استطعت القيام به هو أن أغمغم قائلًا:

- أنتِ لست على حق، أيتها المديرة.

التفتت نحوي، وقد بدت طويلة ومعتدلة البنية وشاحبة بعض الشيء بسبب عدم وضعها لمساحيق التجميل. صاحت أمام القاضي قائلةً:

- أرجو المعذرة، لكنني لم أفهم كلمة واحدة مما قلته للتو، أيها المسكين، كم أشعر بالأسف نحوك.

كم تمنيت لو تمكنت من الرد عليها، وتقيؤ الحقيقة على القناع الذي كانت ترتديه لتخفي به وجهها الحقيقي. ولكن تم سحقي، فما زالت أذناي ترنان وركبتاي ترتعشان بسبب ما نلته من ضرب وركل. لقد بلغت قمة الألم، لم أكن قادرًا سوى على البصق. وحتى البصق لم أكن أمتلك القوة الكافية، يا أمي، لأقوم به، وبالتالي لم تنجح بصقتي سوى في تلطيخ شفتيّ الزرقاوين المتورمتين. لا بد أن هيئتي كانت بشعة، لأن حالة من الصمت سادت قاعة المحكمة بسبب شعورهم بالاشمئزاز عند رؤيتي أثناء

اقتيادي من قِبل رجل البوليس وهو ممسك بي من تحت إبطي بمنتهى التأفف والقرف تمامًا مثلما يمسك صائد الكلاب بكلب جربان.

أنا منهك وخائر القوى، يا أمي. لقد حدثت العديد من الأشياء مؤخرًا. إلا أنني أشعر بأنني وجدتُ راحتي هنا وبأنني أفضل حاًلا الآن. فلم تعد الهلاوس المزعجة والأفكار السيئة تراودني تقريبًا. وأستيقظ من النوم مرتاح البال. وأؤدي التمرينات الصباحية. وآكل بانتظام.

لقد وعدتني بأنك ستقومين بزيارتي. أرجوكِ لا تسيئي فهمي، فأنت لستِ مجبرة على القيام بذلك بصورة منتظمة. فحبك لي يدفئني من بعيد. وكل ما أحتاج إليه هو أن أفكر فيكِ وساعتها سأتمكن من استنشاق عبيرك الرقيق وأنا أشعر بمنتهى السعادة؛ تمامًا كسعادة نحلة طنانة قبيحة مفتونة بعبير «زهرة الملكةِ». فأنا مازلت أحتفظ بصورتك داخلي وأينما كنت أنا وأينما ذهبتِ أنتِ فسأحملك دومًا بداخلي.

القصة الثانية

الثعبان الصغير

«من الأفضل ألا تُروى أحداث هذه القصة الخيالية بجوار ماء راكد».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

عثر الرجل على ثعبان صغير وحيد. والآن وبعد مرور خمس سنوات من حياتهما معًا، شعر الاثنان بالدرجة نفسها من الثقة في بعضهما البعض وكأنهما أقرب الأقرباء. كان الثعبان الصغير يتناول الطعام من يد الرجل دون أدنى شعور بالخوف، ويرافقه خلال جولاته في الغابة، ويغفو في جيب معطفه المصنوع من الفرو الذي ما زال يشعره بالدفء على الرغم من اهترائه. أو يزحف خلفه ليستمتع بأشعة الشمس الدافئة. لكنه في ليالي الشتاء كان ينام طويلًا في هدوء. ملتف حول نفسه داخل عش صنعه الرجل له خصيصًا من الأغصان والطحالب والأوراق ووضعه بجوار المدفأة.

كان جلد الثعبان منقوشًا ويبلغ طوله عشرة سنتيمترات على أقصى تقدير. وكان يستمتع كذلك بتسلق ذراع الرجل، وهو يطلق فحيحه في سعادة. ويستمتع كذلك بالاستلقاء في مكانه في انتظار الفريسة التي تكون في المعتاد إحدى الحشرات؛ ليبدأ بعد ذلك في تأدية رقصة الصيد الخاصة به حولها.

بنهاية العام الثاني من علاقتهما، نجح الرجل بالفعل في تدريب الثعبان على فهم معنى صافراته. حيث عكف طوال تلك المدة على محاولة تعليم الثعبان الصغير كيفية التمييز بين الصافرة القصيرة الحادة والتي تعني «تعال!» والصافرة الطويلة الممتدة والتي تعني «لقد أحضرت لك الطعام»، والصافرتين اللتان لهما الطول نفسه كانتا تعنيان «ارفع رأسك وجسدك لأعلى»، والتي ما إن يسمعها الثعبان الصغير حتى يشرع على الفور في رفع رأسه وثلث جسده من على الأرض، ويبدأ في التمايل يمينًا ويسارًا.

كان الرجل في أسعد حالاته عندما أحضر له الثعبان الصغير «الغليون». لا شك في أن المهمة كانت معقدة، لأنها كانت تتكون من صافرتين: إحداهما كانت قصيرة والأخرى طويلة، الأمر الذي تطلب من الثعبان الصغير إنجاز عدة مهام في آن واحد؛ أولًا أن يعثر على «الغليون»، ثانيًا أن يلتقطه بأسنانه، ثالثًا وأخيرًا أن يحضره للرجل. من الطبيعي في مثل هذه المهمة أن يترك الثعبان الصغير بعضًا من لعابة الرطب على يد «الغليون» نتيجة لإطباقه عليه بأسنانه. وعندما بدأ الرجل في تدخين «الغليون»، شعر وكأنه يمتص شيئًا ما لين مع التبغ.

على مدار الخمس سنوات التالية، وعلى الرغم من علاقتهما الرائعة، بدأت سحابة الوحدة تحط على الرجل بثقلها من جديد أكثر فأكثر. اكتشف وهو يداعب جسد ثعبانه الصغيرة المتعرج، أن الخطأ يكمن فيه هو. قد يكون البعض قد أساء إليه وقد يكون بعض الناس أشرارًا غير عادلين معه، لكنه في المقابل لم يكن لديه الحق في أن يغضب منهم طوال تلك الفترة. وما كان له أن يسمح لنفسه بأن ينسى أيام طفولته وشبابه الرائعة التي قضاها بينهم. وأن هناك من أحبه بصدق لكن الرجل أساء إليه ولم يبادله ذلك الحب. لأنه كان يحب نفسه وفقط.

وبالتالي، قرر الرجل أن يعود إلى المدينة مرة أخرى. ارتدى معطفه، ووضع الثعبان الصغير في جيبه، وما إن اقترب من المدينة وبدأ برؤية بدايات المنازل، أطلق ساقيه للريح. ولكنه عندما وصل المدينة عاوده ذلك الشعور بالنفور والذي سبق وشعر به عدة مرات من قبل عندما هبط إلى المدينة من أجل الحصول على الطعام. راوده الشعور نفسه بالقلق الذي انتابه من قبل. فحياة المدينة لا تروق له وتكاد تخنقه.

بدأ بالفعل يتأثر نفسيًا بنظرات المارة المذهولة والمتهكمة له بسبب هيئته الغريبة. وبسبب منظر شعره المصفف على جانب وجهه ولحيته الكثة ومعطف الفرو القديم المهترئ الذي يرتديه، وذراعيه الباديتين من أكمام معطفه كالمجارف الصدئة، وردود أفعاله المنفعلة والمضطربة التي يصدرها عند سماعه لأي صوتٍ عالٍ. تأمل المدينة حوله.. نظر في عينيها باحثًا عن نفسه. فوجد أنه بهيئته هذه ينتمي لطائفة الشحاذين الزاحفين بحثًا عن الطعام داخل صناديق القمامة تمامًا مثل الكلاب الجائعة.

بمجرد وصوله لعتبة أول فندق صغير صادفه في طريقه، بدأ في الارتجاف كرجل مخمور، وفي اللحظة نفسها التي قرر فيها الدخول إلى الفندق، أخرج الثعبان الصغير من جيبه. أحدث الثعبان صوت حفيف وهو يزحف على الرصيف بسرعة البرق واختبأ داخل أحد الشقوق الموجودة في حائط أحد المنازل القريبة. هناك، في داخل أحد الصخور، هدَّأ من روع نفسه. لأن شعور الرجل بالقلق والتوتر الدائمين قد أزعجه بشدة. وقد استشعر بفطرته أن الظلام قد يوفر له الحماية. وبقي هناك ينتظر.

في داخل الفندق الصغير، جلس الحارس وخمسة أو ستة زبائن على الأكثر، جميعهم من الرجال. كانوا مشغولين بالاستماع لإحدى مباريات كرة القدم المذاعة في الراديو. وكان صوت المعلق الرياضي يشبه لحد كبير صوت رجل مخنَّث، يصيح بصوت عالٍ محدثًا جلبة كبيرة وضوضاء على خلفية من الأصوات الصاخبة الساخرة والمستهزئة المصحوبة بسباب وشتائم هذا الجمع من الرجال الذين تفوح منهم رائحة العرق، مما دفع الرجل إلى الجلوس على أبعد طاولة. وانكفأ على نفسه في الكرسي، وقد غطى أذنيه بيديه حتى هدأ تمامًا.

في تلك اللحظة، لاحظ صاحب الثعبان وجود رجل آخر يجلس وحده على إحدى الطاولات المجاورة له. بعيدًا عن باقي الجالسين الذين يتابعون المباراة بحماس وشغف، كان الرجل يحدق بهدوء عبر النافذة للشارع. وكان هناك زوج من العكازات تم إسنادهما على الكرسي المجاور له. التفت الرجل فجأة نحو صاحب الثعبان وابتسم له وقال:

- يا له من يوم لطيف.

استمر الرجل في الاسترسال في حديثه الذاتي. تحدث عن قدوم الربيع، وعن التلوث في المدينة، وعن استحالة التعامل السليم بين الناس. شعر الرجل بالمرارة، وظهر ذلك واضحًا في احتقاره لتلك الحشود البشرية.

في البداية، أومأ صاحب الثعبان برأسه له دليلًا على موافقته له في الرأي، ليغامر بعد ذلك ويقول «نعم» مرة أو مرتين، وعبارة «بالطبع» و»هذا هو رأيي بالضبط» أحيانًا. ولكن عندما تطرَّق

الرجل لمشكلة الصداقة، قاطع صاحب الثعبان حواره بمنتهى الهمة والعزم. وتساءل:

- أين يمكن أن يجد المرء الإخلاص؟ فالناس أصبحوا شديدي الأنانية! ولا يهتمون سوى بمصالحهم الشخصية.

دونما قصد، اقترب الرجلان من بعضهما البعض. ومال الرجل صاحب الثعبان جهة الطاولة الخاصة بالرجل الثاني، وقد اقترب الرجل الآخر منه هو الآخر. وفجأة هتف صاحب الثعبان وقال:

- لدى شيء أريد أن أريه لك. صديق حقيقي لي.

وعندما أبدى الرجل موافقته، والتي ظهرت في نظرة استحسان ألقى بها على صاحب الثعبان، تجرأ الرجل صاحب الثعبان وبدأ يصفر للثعبان الصغير بصافرة قصيرة حادة؛ الأمر الذي أثار ضيق عشاق ومتابعي مباراة كرة القدم الجالسين حول الراديو.

لم يستجب الثعبان الصغير لندائه في البداية. ذلك لأن صاحبه لم يدربه قط على دخول حجرة مكتظة بالبشر. ولكنه، على العكس، كان يعلمه دومًا أن يحترس من الناس. لذا فقد فضَّل الثعبان الصغير البقاء داخل الشق.

- استمع إلي! أطعني.. اخرج! هذه المرة فقط!

صفَّر له ثانية، كانت نغمة صافرته يائسة. جلب له الصفير عاصفة من الشتائم من قِبل الزبائن الآخرين.

- اصمت!

صرخ مالك الفندق في وجه الرجل:

- ألا ترى أننا نستمع إلى المباراة أيها الأحمق!

الرجل الجالس على الطاولة المجاورة هرش خلف أذنه. وقال:

- آسف. لكنني لا أفهم شيئًا.

في تلك اللحظة نفسها، ظهر من تحت عقب الباب الأمامي، رأس ثعبان صغير. ملأ الدفء صدر صاحب الثعبان، وقال:

- ها هو!

همس الرجل:

- إنه قادم.

لكن في اللحظة التالية، وبحركة بطيئة، تبدلت تعبيرات الفضول المرتسمة على وجه الرجل وتحولت إلى شعور بالتقزز والاشمئزاز وامتدت يده نحو عكازيه في محاولة للغدر بـــ..

القصة الثالثة

الرجل ذو الجناح الواحد

«يجب أن تُروى أحداث هذه القصة الخيالية خلال فترات الاستراحة من الإثنين وحتى الأربعاء».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

شعر الرجل ذو الجناح الواحد بأن هذا الصيف هو أحد أكثر فصول الصيف التي مرت به كآبة.

خلافًا لما هو معروف عن أجنحة الملائكة، لم ينبت جناح الرجل من ظهره، لكنه، عوضًا عن ذلك، نبت في موضع ذراعه الأيمن، وبمخالفة طبيعة أجنحة الطيور، كان لجناحه كوع مرن يتكئ عليه الآن وهو جالس على صخرة كبيرة، وبعينيه نظرة حائرة ومتحجرة كأنه جالس أمام البحر يتأمله، على الرغم من أنه كان جالسًا على صخرة أحد الجبال أمام أحد الطرق الذي تم تمهيده عن طريق إزالة بعض من الأشجار. سيطر على الرجل إحساسٌ بالفراغ الداخلي وعدم جدوى أي شيء. يتزايد هذا الشعور لديه في فترات ما بعد الظهيرة من كل يوليو بسبب تزايد تصاعد الروائح الحمضية العفنة من المدينة الملتهبة الموجودة بالأسفل. بسبب تلك الكتلة اللزجة من السيارات والبشر التي تزحف وتتمدد في جميع الاتجاهات لتغزو حتى أضيق الحارات والممرات. جلس الرجل ذو الجناح الواحد على إحدى الكتل الصخرية الكبيرة الموجودة في منتصف الطريق المؤدي إلى جبل «فودنو» ناظرًا إلى السماء، وعيناه تتتبع إحدى السحب وهي تتحرك وتتنقل من شكل لآخر كمثيلاتها من السحب غير المستقرة. فكر في نفسه: «انظر إلى تلك السحابة! يمكنها أن تفعل كل ما تريد أما أنا..».

في تلك اللحظة، ظهر أمامه فجأة طائر عجيب، نسر ضخم يشبه تلك النسور التي يُحكى عنها في القصص الخيالية، وقد حجب بجناحيه الكبيرين ضوء الشمس والسحابة غير المستقرة. هبط النسر الضخم لارتفاع متر واحد عن الأرض، وثبَّت نفسه في الهواء وظل يحدِّق مباشرةً في وجه الرجل ذي الجناح الواحد.

- ما الذي تريده مني؟

تساءل الرجل ذو الجناح الواحد وهو يجلس في ظل الطائر العملاق الذي غطَّاه تمامًا.

أجاب النسر العملاق على سؤاله بسؤال:

- وأنت؟ لماذا لا تزال موجودًا هنا على الأرض؟

- ألا ترى أنني بجناح واحد؟ ما الذي يمكنني أن أفعله وأنا كسيح هكذا؟ لا يمكنني حتى أن أستمني دون يدي اليمنى. وأنت؟ لماذا جئت إلي؟ هل سبق وتواصلت معك؟

- لقد جئت إلى هنا كي أخبرك بشيء غاية في الأهمية. قد تجده مزعجًا. ولكن ليس هناك من شيء يمكنني فعله حيال ذلك. أنا ابن عمك.

- ماذا؟ ما هذا الذي تقوله؟

- حسنًا، حسنًا. لستَ بأقرب أبناء العمومة إليك. ربما. فأنا أنحدر من سلالة تبعد عنك أربعة أو خمسة أجيال. ولكننا نتشارك في الأصول نفسها. فجدنا نحن الاثنين هو النسر الرمادي. أبوك، والذي هو بمثابة عم لي؛ قام ذات مرة بصفع أمك بجناحه فأصبحت حاملًا فيك.

- حسنًا؟ لنفترض أن ما تقوله هو ما حدث بالفعل، فما الذي يهمني أنا في الأمر؟

- لأنك أنت الوحيد الذي تجسد فيك الاثنان معًا ليصبحا شيئًا واحدًا؛ الطائر والإنسان. بالإضافة إلى كونك الابن الوحيد للنسر الرمادي الذي هو ملك كل النسور. وهو أيضًا من طلب مني وهو على فراش الموت أن أحضرك إليه. إنه يريد أن يراك.

حينئذ، صعد الرجل ذو الجناح الواحد على ظهر النسر ليحلق به في السماء. طار الاثنان أسرع من الريح وفي لحظة واحدة وجدا نفسيهما وقد مرا فوق الكثير من الجبال، والبحيرات، والأنهار. لم يتوقفا عن التحليق حتى وصلا إلى القمة الثلجية للجبل الشاهق.

كان هناك عش فخم ومهيب على قمة الجبل الشاهق. وفي منتصف العش يقف عرش عظيم ومدفأه بيضاء اللون ذات ألسنة من اللهب تعانق بعضها البعض في ضوء أبيض بصورة غريبة. وعلى الرغم من كل هذا الثلج والجليد المحيط بالعش، إلا أن العش كان دافئًا من الداخل بشكل رائع. هذا العش الفخم هو بيت النسر الرمادي.

جلس النسر الرمادي، أو بالأحرى جلس منهكًا من شدة الإعياء على قمة العرش. حتى ألسنة اللهب المتصاعدة من نيران المدفئة لم تستطع أن تخفف من وطأة الحمى التي أصابته وأنهكت جسده الملكي الذي كان فيما سبق قويًا. وجَّه النسر حديثه للرجل ذو الجناح الواحد:

- بني، الليلة سوف أرحل إلى أرض أجدادي. أنا بالطبع لا أتمنى الرحيل ولكن لا مناص من ذلك. لقد حانت ساعتي. أنا لم أشأ أن أزعجك من قبل، كما تعلم. أما الآن وقد اقتربت ساعة رحيلي، أريد أن أطلعك على السر الكبير الذي احتفظت به لنفسي. نعم، أنت ابني!

- لقد فهمت ذلك جيدًا. لقد أصبح الأمر واضحًا وجليًا بما فيه الكفاية.

- لكن هناك شيئًا آخر! العرش! فبمجرد وفاتي سيصبح عرش النسور خاليًا. وأنت الوحيد الذي يحق له اعتلاء هذا العرش. إنه ينتظرك. فاجعل الطيور الموجودة عن يمينك والبشر الموجودين عن يسارك يعاونوك في اتخاذ القرار.

- لستُ أدري ماذا أقول! لقد فاجأتني بقولك هذا ولم أكن مستعدًا له.

- يجب عليك أن تقرر! فأنا أزيد ضعفًا أكثر كلما مر الوقت ويجب أن أحصل منك على إجابة شافية. هل ستبقى هنا أم ستعود لكي تعيش بين الناس. آه.. هناك شيء أخير. كيف حال أمك؟

- إنها على ما يرام بالنسبة لسنها.

- ما هو عمرها الآن؟

- خمسة وسبعون عامًا.

- هل كبرت إلى هذا الحد؟ أنا أتذكر كل شيء، كأنه حدث بالأمس القريب، اللحظة التي لمستها فيها بجناحي. هل هذا ما يطلقون عليه «مرور الوقت»!

فشل الرجل ذو الجناح الواحد في ملاحظة أن والده كان يحاول أن يمزح معه. فهو ما زال مرتبكًا بسبب ما يحدث له، وأفكاره ما زالت مشوشة ومتخبطة وعيناه متسعتان من هول الصدمة.

وبصعوبة شديدة استطاع النسر الرمادي رفع رأسه الثقيل موجهًا خطابه للرجل ذي الجناح الواحد للمرة الأخيرة. وقال:

- أخبرني يا بني، هل تنتوي أن تعتلي عرشي؟ هل ترغب في أن تصبح ملك كل الطيور؟ من الجيد أنني أرسلت في طلبك يا بني.

- أنا.. أنا...

تلعثم الرجل ذو الجناح الواحد. لكن النسر الرمادي لم يعد بإمكانه أن يسمعه بعد الآن لأنه ببساطة قد رحل عبر الشق الموجود في الحائط الذي يفصل ما بين العالمين. وأصوات هذا العالم لا يمكنها أن تصله بعد الآن لأن الشق قد أغلق وراءه.

وبهذا أصبح الرجل ذو الجناح الواحد ملكًا لكل النسور دون رغبة حقيقية منه وقد هلل له مجلس النسور بأكمله.

- كيف يمكنني تولي شؤون الحكم وأنا حتى لا أستطيع الطيران والتحليق وحدي في السماء؟

تعجب الرجل، لأن جلوسه على العرش الحجري ذكره فجأة بجلسته على الصخرة الضخمة الموجودة على جبل «فوندو» التي تسلقها ليهرب من صخب المدينة قبيل وقوع تلك الأحداث الغريبة التي مرت به مع أبيه.

خطرت له فكرة، بما أنه أصبح ملكًا للطيور وأصبحت كل تلك الجحافل من النسور تحت إمرته. ما الذي يمنعه من أن يتولى شئون الحكم، وهو أمر لم يكن صعبًا على الإطلاق. كما أنه سيأمر بصنع جناح خفيف وقوي بأقصى سرعة ممكنة؟ وسوف يتم تثبيته برفق وبمتانة في الجانب الشمال من ظهره. وبالفعل تم تنفيذ أوامره في التو!

لم يعد بعد الآن الرجل ذو الجناح الواحد لكنه أصبح ملكًا متوجًا بجناحين. أو بالأحرى، جناحين وذراع؛ فذراعه الأيسر بقي وحيدًا ومميزًا في عجزه بنوع خاص من الجمال، سوف يخصصه للقيام فقط بكل الأعمال النبيلة. مثل حمل الصولجان أو تصفح كتب السفر المزينة بالنقوش.

إن البقع الموجودة على ظهر الرجل والتي نبت منها جناحيه الطبيعي والصناعي، ما زال يشعر فيها بنبضات ألم صغيرة تمنحه متعة جسدية كبيرة.

«الآن يمكنني التحليق بحرية!» صاح الرجل وقد انطلق يحلق في السماء.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

نعم! كما لو أن كل الطاقة التي سبق وسُلبت منه قد عادت إلى جسده من جديد. أثناء استنشاقه لهواء المرتفعات المسكِر! بدأ يتخيل أنه يغزو السماوات برغباته، وبأنه بدأ يحيا حياته بشكل جديد يختلف تمامًا عن كل ما سبق وعرفه في حياته من قبل. تتدفق مياه أنهار الجبال نحو الأسفل، لتتساب عبر وديان الغابة. البيوت، وحتى المباني الكبيرة، ظهرت في حجم (المكعبات) التي يلعب بها الأطفال. وبينما هو يحلق إذ به يتحول إلى النسر الملك المملوء بالعزة والذي يضحك بصوتٍ عالٍ وبعظمة بين السُحب ها ها ها ها!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

هبط أولًا كي يزور أمه. بعيدًا عن كونها كانت مندهشة، إلا أنها بدت مرتاحة لرؤية ابنها في هيئة نسر. قالت له:

- لست بحاجة لتفسير أي شيء لي! أنا أتفهم كل شيء!

أم الرجل، التي تبلغ من العمر ثمانين عامًا وليس خمسة وسبعين كما سبق وقال قد أصبحت أخيرًا فخورة بولدها. وقد ارتدى جناحيه كمعطف ملكي فوق ذراعه الأيسر:

- أمي، أعلم أنني لم أسبب لكِ سوى المشكلات طوال حياتي، بسبب ارتباكي وعُقدي. أما الآن وبعدما أصبحت قويًا وواثقًا من نفسي، أخبريني هل لكِ من أمنية محددة يمكنني أن أحققها لكِ ولو لمرة واحده في حياتي؟

كانت أمه تتميز بعمق التفكير. فضَّلت الصمت في البداية لدقيقة أو أكثر، لتتكلم بعد ذلك بسرعة:

- بني، صحيح أنك لسنوات كنت أخرق وفظ وضائع وقد تسببت لي في الكثير من التعاسة. وكان علي الاستماع إلى العديد من الشائعات عنك من أصدقائك، وأن تلك الشائعات تسببت في بقائي مستيقظة وقد فارق النوم عيني لليالٍ كثيرة. ربما لم يكن الخطأ خطؤك في كل ما مررنا به. لكن هكذا هو السبيل الذي قرره لنا القدر لنسير فيه. عفا الله عمَّا سلف. عندما أنظر إليك الآن، وأنت وسيم هكذا، تنهمر الدموع من عيني من شدة الفرح والسعادة.

-لا تبكي يا أمي!

- لقد كبرت وأصبحت نوعًا ما عاطفية. كل شيء يمر. دعني الآن أفكر في الأمنية التي سبق وعرضت أن تحققها لي.

- أخبريني يا أمي، هيا أخبريني!

- أنا أعرف. في الليلة الماضية أو التي سبقتها، لستُ أدري بالتحديد، حلمت بفتاة. آية في الجمال. تعيش بالقرب من شاطئ بحيرة الجبل هناك في الأعالي التي تُغطى فيها الطحالب بطبقة من الجليد يصل سمكها لخمسة عشر سنتيمتر في فصل الشتاء.

- من الملائم بالنسبة لي أن تسكن الفتاة الأعالي هكذا وخصوصًا بعدما حصلت على جناحين وأصبحت أميل بشكل إيجابي نحو المرتفعات.

- نعم، أنا أصدقك تمامًا فيما تقول، لكن كان هناك بقية للحلم لم أخبرك بها بعد. بعض المشكلات الصغيرة. دعني فقط أتذكر ما هي...

- لا تجهدي نفسك يا أمي. مهما كان هذا الشيء فلسوف أقهره.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- الرجل حتى وإن كان ذو جناحين فعليه أن يسير في الدرب الذي رسمه له القدر، وأن يرتحل فيه دون مراوغة، وعليه أن يسير فيه حتى النهاية لكي يفهم دوره الحقيقي في العالم.

بعد أن لخصت السيدة وضع ابنها في جملة موجزة ومختصرة، الرجل ذو الجناح الواحد سابقًا وملك النسور حاليًا، أصدر أوامره لكل الطيور بالبحث في كل مكان عن الفتاة ذات الجمال الآخاذ التي تعيش بالقرب من شاطئ بحيرة الجبل العالي. حلقت كل النسور على الفور تفتش في الأركان الأربعة للعالم ولم يشأ بطلنا أن يظل وحيدًا ليتملكه الشعور بالملل في عشه، لذا قرر هو الآخر المشاركة في البحث بنفسه. لقد كانت رحلته مرهقة وطويلة، فبعد مرور أسبوع كامل من الطيران، ومن موقعه فوق قمة الجبل الشاهق في وقت الظهيرة، رأى بحيرة نظيفة ونقية ذات لون أزرق غامق بها ثلاث بجعات يستحمون وقد تركوا ثلاث فساتين على الشاطئ، «كيف يكون هناك ثلاث بجعات على مثل هذا الارتفاع؟ وما الذي تفعله تلك الفساتين الثلاثة هنا؟».

لقد كان له كل الحق في التعجب والتساؤل. قرر أن يختبئ خلف شجرة صنوبر مغطاة بالثلوج ليختلس النظر إليهم. وإذ به يرى إحدى البجعات تهز ريشها وتبدأ في التحول إلى فتاة جميلة. ترتعش من شدة البرد، لتذهب مسرعة لترتدي فستانها الذهبي وتهرب عارية القدمين على الثلج ناحية أحد الأكواخ الحجرية.

أما البجعة الثانية فقد خرجت هي الأخرى من البحيرة وكررت بالضبط ما فعلته البجعة الأولى. وتحولت إلى فتاة جميلة وكما توقع هو، ذهبت مسرعة لترتدي فستانها الفضي وجرت في إثر أختها.

وقبل أن تسبح البجعة الثالثة كي تخرج من البحيرة، تسلل ملك الطيور واختبأ خلف شجرة صنوبر واستولى على الفستان الأبيض الثالث. تملك البجعة الأخيرة الرعب وقررت العودة إلى البحيرة ونادته من داخل البحيرة بصوت عذب ورقيق:

- هلَّا أعدت إلي الفستان من فضلك؟

-حسنًا. اخرجي إلى الشاطئ لتأخذيه. سوف أعلقه على أحد فروع شجرة الصنوبر وسأنسحب خلف الشجرة.

فكرت الفتاة البجعة وقررت بينها وبين نفسها أنه بمجرد أن تمسك بالفستان ستهرب مسرعة.

في اللحظة نفسها فكر الملك النسر بينه وبين نفسه أنه بمجرد أن تقترب الفتاة من فرع الشجرة كي تأخذ فستانها، سوف تصبح ملكه!

خرجت الفتاة البجعة من البحيرة وتوجهت بسرعة كبيرة نحو فرع شجرة الصنوبر المعلق عليه فستانها الأبيض. لقد كانت سريعة حقًا لكن ملك النسور كان أسرع. فقفز أمامها مباشرة وأمسكها بقوة وضمها إليه.

في تلك اللحظة بدأ جسدها في التحول؛ في البداية سقط الريش الموجود حول رقبتها تاركًا عنقها الأبيض المعطر عاريًا، وبعدها بدقيقة، داعبت أنفه ضفائرها الشقراء الراقصة. ليكتشف فجأة أن الجسد الذي كان يلمسه لم يكن جسد بجعة بل جسد امرأة بشرتها تلمع بصورة أكثر حميمية من ريشها.

تراجع خطوة للخلف للتأكد من أن ما يراه حقيقيًا. بدأ جسدها بالتدريج في التعري أمامه كاشفًا عن جمالها الفتَّان شيئًا فشيئًا، وتزايدت إثارته وتضاعفت. كان يعرف أنه لا تزال هناك بعض المواضع الفاتنة والجوانب المظللة بالريش التي سيلي الكشف عنها. هل يتخيل ما يراه أم لون عينيها المخملي أغمق من لون شعرها، أصبحت الفتاة أكبر حجمًا وجسدها أكثر غضونة وهو ما زال يحتضنها نصف احتضانة بواسطة جناحه الأيسر القديم. بدأت حلمته المتصلبة تحتك بثديها الذي أصبح كامل الاستدارة على شكل برتقالة؟ والريش الموجود بجناحيه وهو يحتضن جسدها العاري المبلل تفاعل معها بصورة أقوى من جلد يديه، حيث انتفش ريشه كريش ديك هائج.

تأثره بالمشهد أفقده القدرة على متابعه الكلمات التي نطقت بها بصوت منخفض:

- هلَّا تكرمت بتمرير الفستان لي؟

في تلك اللحظة فقط لاحظ أنها كانت ترتجف من شدة البرد. فأعطاها الفستان لترتديه فرفعته فوق رأسها كي ترتدي كاشفة بذلك عن كامل جمالها الأنثوي؛ خصرها النحيل، وفخذيها الأبيضين المستديرين وكل المناطق المثيرة الموجودة بجسدها. استغرق الأمر منه بعض الوقت كي يلملم شتات نفسه، ويستوعب ما تقوله.

ما إن ارتدت الفتاة فستانها الأبيض، حتى بدأت في سرد أحداث قصتها. التي بدت مألوفة، هل من روت له هذه القصة كانت أمه أم شخص آخر أكبر منها سنًا؟

«إليزا»، هذا هو اسم هذا الكائن الرقيق، هى وأخواتها البنات قد انحدروا من أصول نبيلة وكانوا جميعًا ضحايا للسحر الأسود الذي تمارسه زوجة أبيهم. لقد كانت زوجة أبيهم ساحرة قديرة واستطاعت بكل سهولة أن تسحر عقل أبيهم الساذج. وفي ظهيرة أحد الأيام بينما كان أبوهم بعيدًا، قامت بإلقاء قميص مسحور على كل واحدة من الفتيات لتحولهن بعد ذلك إلى بجعات. فطاروا بعيدًا كي يعيشن بجوار تلك البحيرة الموجودة على قمة الجبل الشاهق حتى لا يشهد أحد معاناتهن. ليقضين بعد ذلك سبع سنوات من أعمارهن في هذا المكان كبجعات. ولا يمكنهن استعادة أجسادهن البشرية سوى ساعة واحدة عند الظهيرة ليعودوا بعدها بقية الوقت كالطيور.

- وأنا كنت كالساذج وأنا أهفو بشدة للحصول على جناح آخر.

خرجت الكلمات من فمه سريعًا ودون أن يقصد، لكن «إليزا» لم تلحظ ذلك لأنها كانت منهمكة في سرد أحداث تاريخها المحزن. ولم تسمع مقاطعته بصورة صحيحة:

- نعم، نعم أنا أشتاق بشدة للعودة لحالتي الأولى. هناك شيء واحد يمكنه أن ينقذنا، لكن مخلصنا مقدر له أن يخوض غمار الكثير من المتاعب في سبيل ذلك.

- أخبريني كيف!

- لستُ أدري إن كان لائقًا أن أقول هذا الكلام.

- لائق أم غير لائق.. لا يهم؛ أنا أريد فقط أن أسعدك؛ وأسعد نفسي.

- حسنًا سيكون عليك أن تعدني بألا تضحك أو تنطق بكلمة لأي شخص لمدة عام كامل.

- هذا ليس بالأمر الهين. هذا صحيح. ولكن إن كان هذا هو المطلوب فليكن؛ لا ابتسامة ولا كلمة واحده ستنسل من بين شفتي. قد لا تتفهم نسوري هذا الأمر في البداية، لكنني سأتدبر الأمر بطريقة ما. وإلا، فكيف يعيش من يعانون الصمم؟

- أنت تضحي بالكثير من أجلي. لكن للأسف هذا ليس كل شيء. عليك أن تتعهد بإنجاز مهمة أخرى صعبة.

- أنا لا أيأس أبدًا. ولا سبيل للتراجع الآن. وأنتِ، أنت تبدين لي كشخص غاية في الرقة والحساسية. وأنا أحبك أكثر بسبب ذلك.

- إذًا سأخبرك. في الوقت نفسه الذي ستكون أنت محروم فيه من الكلام والابتسام، عليك أيضًا أن تقوم بغزل ثلاثة قمصان لي ولإخوتي البنات.

- أغزل ثلاثة قمصان؟ لقد فاجأتني بهذا الطلب. فأنا لم أقم بأي من الأعمال التي تقوم بها النساء في حياتي من قبل. فالرجال لا يغزلون القمصان، أنتِ بالطبع تعرفين ذلك.

- هناك شيء آخر أريد أن أخبرك به. يجب أن تغزل تلك القمصان من نبات القراص. هل تدرك الآن حجم الإغراءات والاختبارات التي يجب عليك أن تخوضها كي تنقذني أنا وأخواتي من هذا السحر اللعين؟

- «إليزا» أنت بالفعل روح عاطفية ورقيقة جدًا. أنا لا أستطيع أن أتفهم مثل تلك التضحيات. ربما لأنني كنت طفل وحيد.

- هذا يُعد إحدى عادات شعبي. فطبقًا لأساطيرنا؛ فإن هذا العالم قد خُلق عن طريق الغزل. إبر الغزل الإلهي خلقت بصبر وأناة كل تلك الجبال وما تحويه من بحيرات مقدسة وقممها المغطاة بالثلوج. وكل تلك الغابات الخضراء، وكذلك الكرنب الملفوف والتوت البري، والبطاطا، والبقر، والذئاب، والنسور بالطبع.

- النسور؟

- نعم، كل الطيور والحيوانات تمت حياكتهم بالغزل الإلهي.

- ماذا عن البشر؟

- نحن جميعًا متصلون ببعضنا البعض عبر خيوط الغزل الإلهي. العالم بأسره تم غزله بواسطة خطوط غير مرئية؛ الغرض منها هو تحقيق التوازن: التوازن بين ما هو خارجي وما هو داخلي. ما بين الطيران والكهف، وما بين الذكر والأنثى.

- فالنساء يبقين ألبستهن بيضاء بغسلها في ينابيع وبحيرات الجبل الباردة النقية. لكن...

تنهدت «إليزا» وأكملت:

- إن الساحرات مثل زوجة أبي تهاجم وتحاول فك هذا التوازن المحاك بدقة للعالم. لتتسبب في تعقيد تلك الخيوط الخاصة بالغزل المقدس ونجحت في تحويلنا إلى بجعات.

- وفقًا لكلامك هذا فإن هناك ساحرة أو ما شابه ذلك قد تدخلت في حالتي أنا أيضًا.

كلما روت «إليزا» أحداث قصتها، كلما ازدادت حمرة وجنتيها بسبب الإثارة.

- لكنك.. هذه الهيئة الخاصة بك. كيف يمكنني أن أعبر عن ذلك؟!! هذا المظهر الذي أصبحت عليه.. يجعلك تبدو أكثر قوة ورجولة.

صمتت قليلًا ثم أكملت:

- آه، يا عزيزي، أنت ستضحي حقًا بالكثير من أجلي؟ ومن أجل سعادتنا المستقبلية؟ لأنه عندما تقول «نعم» عليك أن تبقى صامتًا لمدة عام ولن تكون قادرًا على الابتسام وعليك أيضًا أن تقوم بغزل ثلاثة قمصان من نبات القراص.

رفعت «إليزا» ثدييها اللذين يشبهان ثمرة البرتقال، ليبدوان أكثر إثارة وجاذبية وهما تحت فستانها المبلل.

- كم أرغب في أن أصدق أنك ستنتجح. أنا آسفة لأنني أجد نفسي مضطرة لأن أسألك هذا السؤال؛ هل لديك ذراع واحدة فقط؟

أمسك بها فجأة من عند الكتف بواسطة ذراعه الأيسر الضعيف.

- هذا قد يبدو فظًا بعض الشيء.. ولكن، لماذا لا يمكننا أن.. أنتِ تعرفين.. إن كان ممكنًا.. فالحياة تمر بسرعة كما تعلمين، لماذا لا نتعرف على بعضنا البعض بصورة أفضل.

- لا تتسرع. سيُتاح لنا الوقت الكافي للقيام بكل ما نريد يا عزيزي. إن نجحت خطتنا، سوف تختبر بنفسك متع وملذات لم ترها ولم تحلم بها من قبل. أما الآن فعليك أن تقول «نعم» وتصبر لمدة عام كامل على عدم الكلام، حتى ترانا نطير إلى المكان الذي ستكون فيه ومعك القمصان الثلاثة، وحتى ذلك الحين لن يكون هناك المزيد من الضحك أو الحديث، الغزل فقط.

- نعم!

قالها باندفاع. والآن.. لا رجعة.

فارق النسر الملك «إليزا» بقلب مثقل بالهموم والأحزان وعاد إلى أمه في صمت. لاحظت الأم بسرعة أن هناك خطب ما يتعلق به.

- لقد أصبحت هادئًا جدًا يا بني. يبدو أن هناك العديد من الأشياء التي حدثت لك مؤخرًا. أخبر أمك بما يزعجك. ارسمه لي بواسطة جناحيك أو بيدك أو بعينيك إن استطعت. سوف تفهم أمك كل شيء.

لوَّح لها بيديه، ثم استدار وقفز، وفتح عينيه محدقًا. لو رآه أحد غير أمه لوجد أن ما يفعله هو الأكثر غرابة على الإطلاق. تابعته أمه بصبر وببعض المنطق الخاص بها، بدأت تفهم ما يحدث.

- لن يكون الأمر سهلًا على الإطلاق. يمكنني أن أتذكر تقريبًا أنني قد تم إخباري بشيء يشبه ذلك في أحلامي ولكنك لم تكن صبورًا بما يكفي لتسمعني حتى النهاية. أيًّا كان الأمر، سوف تمر بأوقات صعبة ومريرة حتى تتعلم الغزل. خصوصًا في البداية، ولكن بمجرد أن تتمكن من عمل أول غرزة لك سوف يصبح الأمر أيسر بكثير وسوف تُفاجأ بمدى تقدمك السريع. في حالتك يا بني؛ سيكون الأمر أكثر تعقيدًا من المعتاد. فأنت بحاجة إلى يد، حتى والدك بكل خبرته في الطيران لم يكن شديد المهارة في استخدام أجنحته؛ والآن دعنا من الشكوى.

صمتت قليلًا ثم أكملت قائلة:

- اجلس واستمع إليّ جيدًا. في إحدى يديك - في حالتك ستكون يدك اليسرى. يجب عليك أن تمسك إبرة الغزل ذات الخطاف. هز رأسك إن كنت تفهم ما أقول. حسنًا. وبعدها وبهذه الطريقة سوف تستخدم جناحك الأيمن في حمل الخيط ولف الخيط حول إبرة الغزل. نعم هكذا. قم بعمل الغرزة الأولى ببطء. والآن اسحب الخيط باليد التي تمسك بها الإبرة واصنع ذيلًا. ضفيرة. أنا أعرف يا بني أن الأمر صعب. ولكنك إن نجحت في عمل غرزة فهذا يعني أنك ستتمكن من عمل كل شيء. تعال، دعنا نكرر المحاولة. لا تنزعج. في وقت من الأوقات سوف يصبح الأمر سهلًا لدرجة أنك ستتمكن من عمل الغرز بظفرك. لف الخيط، أدخله في الإبرة. ثم قم بشده هكذا. والآن خذ قسطًا من الراحة وأثناء الاستراحة سوف أعلمك نمطين من أنماط الغزل؛ الأول هو غرزة الغزل والثاني هو غرزة التطريز. هز رأسك إذا كنت تفهم ما أقول.

بدأ ملك النسور عامه الطويل وهو يشعر بالتعب من كثرة الغزل، الأسوأ من الغزل هو اختيار نوع الغزل - نبات القراص - وإحجامه عن الكلام والضحك. وكما توقع، كانت المشكلة الأساسية في هذا الأمر هو ردة فعل شعبه من الطيور. وهم لديهم كل الحق كي يكونوا غاضبين. فكونه لا يضحك كان أقل مخاوفهم: فالنسور ليسوا مشهورين بتمتعهم بحس الفكاهة.

ولكن الصمت استحال إلى مشكلة حقيقية. إن كان عدم حديثه معهم شكل من أشكال الغطرسة لكانوا سامحوه؛ فهو في النهاية ملك النسور جميعها. لكن ساعة بعد ساعة، يوم وراء يوم، شهر بعد شهر، وهو باقٍ على هذه الحال ونادرًا ما يجلس على عرشه المصنوع من الحجر، ولا يحلق ولو لمرة واحدة، هو فقط جالس هناك في صمت يغزل! يحلق فقط بجناحيه بعد منتصف الليل باحثًا عن المزيد من نبات القراص اللازم لغزل القمصان وقد تورمت أصابع يده اليسرى لكنه بالرغم من ذلك استمر

في الغزل في صمت وقد ملأت عينيه نظرة متبلدة باهتة. فهمت النسور هذا الأمر على أنه دليل صارخ على التدهور التام.

انتشرت الشائعات بين الطيور كالنار في الهشيم، وبدأ يعلو صوتها أكثر فأكثر. ورغم علمه بكل هذا استمر في صمته وفي الغزل. طالبت الطيور بعقد جلسة طارئة لمجلس الطيور.

فبعض الأصوات الغاضبة بدأت تعلو في مملكته.

- لقد اكتفينا من هذا الحاكم! اعزلوه!

كان ينهي القميص الثالث في هدوء، والاثنان الآخران قد انتهى منهما ووضعهما بجواره.

- هذه إهانة! إنه يسخر منَّا! يا للعار.

وفجأة، أظلمت السماء وهبطت منها ثلاث بجعات ليملؤوا الفراغ الضيق الذي بقي حوله وقد قمن بإحناء أعناقهن في خضوع له. فقام على الفور بإلقاء القمصان الثلاثة فوق رؤوسهن، وكانت المفاجأة التي أذهلت الحضور؛ فقد تحولت البجعات الثلاث إلى «إليزا» وأختيها. كان المنظر رائعًا! فالفتيات كن رائعات في قمصانهن المغزولة اللاتي كشفن عن روعة أجسامهن البضة اليافعة. انهمرت دموع الفرحة على وجدتني «إليزا» وأخبرت المستمعين المتلهفين لسماعها عن محنة الأخوات الثلاث مع سحر زوجة أبيهم الأسود الشرير والتضحية التي قدمها ملك النسور.

- توقفوا عن الضغط عليها! واتركوا لها منفذًا لكي تتنفس!

بعد عام كامل سمعت النسور أخيرًا صوت ملكهم حازمًا وواثقًا كما كان دومًا من قبل. وعلى الفور أفسحوا الطريق له ليمر ويقترب من «إليزا». ليحتضنها بقوة ويعانقها وعندما لاحظ أنه بدلًا من أن ينبت لها الذراع الأيسر، ما زالت تحتفظ بجناحها الأيسر.

-أيها الذراع المسكين! لقد خذلتك. لم أستطع إكمال الكم.

- لا تحزن! سوف أحتفظ بجناح البجعة هذا رمزًا لحبك لي وسوف نكمل بعضنا البعض عندما نمارس الحب.

أنهى ملك النسور بعجلة كافة الشكليات العائلية والمجاملات التي تتعلق بالوزراء، وأختيها، وأمه - التي كانت تذكِّر الجميع بالدور الرئيسي الذي لعبته في عملية الغزل. بعدها قام الاثنان بخلع ملابسهما وذهبا للنوم عراة. ابتسمت «إليزا»، فسألها وهو يشعر بالقليل من الإهانة:

- ما الذي يضحكك؟

- تلك الشامة يا عزيزي الموجود على قضيبك. والآن، ونحن على وشك أن نبدأ علاقتنا الحميمة، رأيتها على الجانب الأيمن من قضيبك.

- وماذا في ذلك؟

- حسنًا، أنت تعلم أن هناك معتقدًا سائدًا بين قومنا أن هؤلاء الذين يكون لديهم شامة في الجانب الأيسر.. كيف يمكنني أن أقول ذلك؟ أنت تعرف، يكونوا مثليين.. وهؤلاء الذين يشبهونك، من أصحاب الخال على جانبهم الأيمن، يكونوا مستقيمين. هلا بدأنا في العناق الآن. فقبلاتي ستعيد البسمة مرة أخرى إلى وجهك.

أصبح صوتها أكثر عمقًا كما لو أن بحلقها طائر محبوس.

- يا إلهي!

قالها الرجل ذو الجناح الواحد لنفسه. كان الأمر أروع من أكثر تخيلاته جموحًا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

عاش الاثنان بسعادة بالغة لوقت طويل، حتى نهاية حياتهما، خصوصًا هو. فقد اعتنت «إليزا» به حتى ماتت، بعدما صار أرمل وهو في الثمانين من عمره. لقد ورث عن أمه طول العمر. حرص على ألا يحتاج ابنه ووريث عرشه لأي شيء. ساعد فقدانه لذاكرته على احتمال تلك الفترة من حياته. لقد شعر بأنه لم يعد هناك شيء ليعتني به في العالم، وأضحى ما تبقى من حياته كطفولة ثانية مملوءة بالتخيلات والكائنات الخرافية القادمة من عوالم خرافية بعيدة. في سنواته الأخيرة، ضعف إدراكه، وحصلت تخيلاته على جناحين قويين استطاع من خلالهما أن يهيم بسعادة وحرية بين هذه العوالم.

في مرة من ذات المرات، وبمعاونة بعض خدمه المخلصين، قرر أن يتسلق تلة بعينها والتي تبدو مألوفة نوعًا ما بالنسبة له (كيف ذلك؟) ليجلس على إحدى صخورها الضخمة وسط إحدى الطرقات التي تم إزالة بعض الأشجار التي نبتت بشكل عشوائي منها. ليتناول قضمة أو اثنتين من الحلوى التركية التي يحبها مع جوز الهند اللذيذ الناعم الملائم لفكه الخالي من الأسنان، ناظرًا للسماء ليتابع حركة بعض السحب الصغيرة والكبيرة المتنقلة ذات الأشكال المتغيرة، والتي تتحول من هيئة الأحصنة إلى هيئة الأفيال ومن الأفيال إلى القطارات ومن القطارات إلى الثعابين.. وهكذا بلا نهاية.

القصة الرابعة

إنساني مفرط في إنسانيته

«يجب ألَّا تُروى أحداث هذه القصة الخيالية على الطرق السريعة ليًلا».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

«وحين أكون قد رحلت عن الدنيا، فلن

أتجَسّد الشكلَ الدنيوي (الموجود)

وإنّما الشَّكل الذي كان يبتدعه الصَّاغة الإغريق

من الذهب المطروق، أو الطلاء الذهبي

لجعل الإمبراطور النِّاعس يقظًا

أو لأغّني، على غصنٍ ذهبيّ

لسادةِ بيزَنْطة وسيِّداتها

عمَّا مضى أو يمضي أو ما سيكون».

ويليام باتلر يتس، «الإبحار إلى بيزنطة».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

على الضفة المقابلة، ومن أعماق الغابات وعبر الضباب الذي تبدد بعد سقوط الأمطار، طار سرب من الطيور بصورة عمودية تقريبًا، نحو السماء. وقد تردد صدى صرخاتهم في الضباب هناك بعيدًا عن النظرات القلقة للبشر والأحصنة المتجمعين على ضفة النهر. هناك على تلك الضفة، يتجمع الأعضاء المجهولون الهائمون على وجوههم بلا هدف قبل لقائهم بسيد العالم السفلي.

ظل الجميع يتتبع حركة النهر ليومين وليلتين كاملتين. في البداية، خدعوا أنفسهم بأنهم يستطيعون اجتياز المياه. والآن وبعدما أصبحوا واقفين وسط الصرخات المحتضرة المخيفة للظلال الوهمية التي طارت نحو الأعلى، بدا النهر ساكنًا بلا حراك كأنه نذير شؤم.. بدا كبركة من الطين الأخضر الغامق.

«كيف انتهى بي الحال إلى هذا اللا مكان؟».. تساءل الراكب وهو ينظر حوله باحثًا عن ذلك الفراغ المسحور، وفي الوقت ذاته كافح لكي يهدئ من روع حيوانه الهائج. في وسط العضلات المتشنجة والعرق البارد المتصبب من حصانه الفحل استشعر الراكب السبب خلف خوفه. فتلك الطرقات الشيطانية كلها قد تشابكت معًا وكان تخليه عن زمام حصانه يقع تحت رحمة أكثرهما جنونًا.. أكثرهما هروبًا من العقلانية والمنطق. ووسط كل هذا الظلام المخيف، تعرَّف الراكب على العلامات والإشارات، تلك التي لم يرَ مثلها سوى في الكتب:

- هنا تختبئ أنفاس أجدادنا.

تحركت سبابة الشرقي فوق النقوش.

- لقد نقشوا أسرارهم في الحجارة واختفوا. أعلن البرق والرعد أن وقت الرحيل قد حان. من كانوا؟ كانوا كالأيام المشمسة التي اعتبرتها الآلهة طيورًا مهاجرة. مروا في لمح البصر وحل الخريف بالفعل. الصمت المطبق. لكن الحجر قد حفظ جراحهم بمنأى عن نسيان البشر. مد يدك. هل شعرت بالعاطفة وهي تتحرر؟ وعندما نظرت إليه، هل اعتقدت أنه مجرد حجر ميت لا يشعر بالمعاناة. هل ما زلت ترغب فيه؟

بقي الرجل يضغط على يد الراكب بين يديه وعلى التعويذة، رفع السوري عينيه من تحت جدائل شعره البيضاء المتهدلة على وجهه.

– أنت نبيل. وحاشيتك متعالية وقاسية وعنيفة. لكنني لا أخشى السيف. لقد نزعت عني رداء الخوف في بيروت. تركته هناك بين رماد وركام ما كان يومًا بيتي. وقد تم التنبؤ لي بأنني سأكون الواهب والمنعم الذي سيعبر فوق الحجر مصحوبًا بالنعمات. أنا، سليل «سيث» الذي تنبأ بموت «روبير جيسكار». يقال إن الأحجار قد ترى مئات الحيوات. وحياتي وحياتك ما هما إلا مجرد دفقات من المياه في سلسلة تدفقها المستمر.

ابتسم السوري ابتسامة عريضة، مما دفع أصغر المرافقين للغمغمة بكلمات غير مفهومة. كان الشاب يشعر بالرعب من تلك الحكايات التي تُروى عن «جايلو» الوحش المتعطش للدماء الذي يمتص دماء الأطفال في الصحراء تاركًا جلودهم خلفه. كان سعال الشاب الصغير الذي لم تنبت لحيته بعد قصيرًا ومتقطعًا، وقد أزاح صوت سعاله ذلك الفضاء الثقيل كوهج سريع أُخمد فجأة.

- لا تخدع نفسك بوهم أنها ستحميك، على الأقل ليس على طريقة هؤلاء الحمقى والأغبياء الذين يزينون أنفسهم بالسلاسل الذهبية ويتوهمون بأنها ستحميهم.. فعالمنا عالم هش نبيع فيه أميراتنا للهمج البرابرة كي ننعم بالسلام الذي لن يدوم سوى لعامين فقط. لا أحد يستطيع أن يدَّعي البراءة؛ فقطعان الذئاب الآتية من الشرق ما هي إلا ثعبان «الهيدرا» ذو المائة رأس. والمحاربون القادمون من الشمال ما هم سوى رياح باردة آتية من السهول اللا نهائية التي تجتاح «المدينة المقدسة». في الماضي كانت الإمبراطوريات والممالك تتصارع فيما بينها، لكن ما الذي يجب علينا أن نفعله الآن؟ لن تستطيع الأحجار أن تساعدك إن كنت ترَ بعينيك فقط. لن تتمكن من رؤية أي شيء آخر عدا سطح مظلم لا ضوء له. ولكن إن كان الضوء يبحث عن ملجأ له بداخلك، فإنه قد يطلعك على بعض من حكمته. وسوف تتفجر تنبؤاته بطريقة غير متوقعة، مثل الطحالب الخضراء التي تنمو على سطح الصخرة المهزومة العارية. على الرغم من تحذيره بأن أول من تطأ قدماه أرض «طروادة» هو مقتول لا محالة. كان ابن «ليارتس» أول من قفز من السفينة مرتديًا درعه الذي سبق وألقاه على الشاطئ. وبقي على قيد الحياة ونال الشهرة.

إن الدماء المختلطة للأبطال تتسرب من الفتحات الموجودة في الدروع البرونزية مثل البذور التي تنبت من قدحات الأعين المشقوقة فتغير ماء النهر إلى اللون الأحمر. صرخات الحرب وصوت

حشرجة الموت تطفو مع الأمواج؛ الغضب المتكبر للمذبوح الذي عانى من كبريائهم وعجرفتهم.. المحارب القديم صاحب اللحية الرمادية وقد انضم للصبي المتحمس في احتضانة مياه «خارون» الأبدية لهما. لقد اجتمعنا هنا اليوم لكي نحظى بتجربة «باتروكلوس» نفسه في الغرق في بحر الوحدة، كي ننعي الشمس التي كان سيكدح تحت أشعتها طوال الليل والنهار بصمت. آه لو تمكن من الشعور بأشعتها الذهبية الدافئة مرة أخرى. لنستفيق في صبيحة اليوم التالي للمعركة على مشهد الكلاب وهي تتغذى على جثث المهزومين.. جثث مغطاة بالثلوج. مشهد يساوي في عظمته خلق العالم كله.

ترك الراكب وقد استقر على وجهه التعبير نفسه عندما شاهد برابرة الشمال يلعبون لعبتهم الصامتة مع الفتيات. كان هناك شاب يافع يغري إحدى الفتيات كي تكرر حركاته البهلوانية. كانت كل حركة جديدة أسرع وأكثر صعوبة من التي سبقتها. احتفت تلك اللعبة بالصحة؛ ولكن احتفاءهما ذاك كان بالموت.. وفي كلا المشهدين كان هناك النوع نفسه من الضوء الذي ينتشر فوق كل الأجساد والمناظر الطبيعية؛ ضوء مثل الأعمدة التي تنغرز بين فتحات شبكات «الناموسيات» وتتسرب من خلالها لتملأ رحم غرفة النوم بالنور. نور النعمة السماوية التي غيرت العلاقات القدرية الموجودة هنا ما بين الوجه وصوته، بين الشيء وحركته، الضربة السعيدة لأبينا الأثيري. يمكن للراكب الآن أن يشعر بالعطف اللا نهائي وبالقوة اللا نهائية التي تمددت فوق وتحت السحب. ويمكنه كذلك أن يشعر بضفائر الفتاة المهزومة، وببريق الخلق المنتشر في كل مكان، كل مكان..

ليأتي صوت السوري المتهكم الأجش ليعيده مرة أخرى إلى الحقيقة القاسية للضباب البارد الساكن على ضفة النهر. وبألم شديد بدأ ينزع تلك القشرة الرقيقة للصورة المثالية التي كان يرسمها.

- إن الذي كان يمتلك الحجر قبلي قد خلط الحكمة بالجنون. كان يُعرف باسم «قسطنطين أناستازيس»، أحد النبلاء المنحدرين من العاصمة الذي تم إرساله كي يدير إقليمنا. يقول الناس إن أشعة الشمس الملتهبة تحفز التخيلات والأحلام الزائفة داخل نفوس الحكام الشرقيين؛ أحلام وتخيلات بامتلاك إمبراطوريتهم الجديدة لقوى خارقة، أوهام معززة بتماثيل عملاقة. بالأسفل رجل يطلب المزيد ويحصل عليه، مُحاط في أرجوحته الشبكية بالنباتات المذهلة. لذا فـ«قسطنطين»، الذي علم بأمر الحجر، تعذَّب برؤى مجنونة لما يمكنه تحقيقه فقط إذا وضع يديه على الحجر. أشار إلى كتبه وتلا صلوات طويلة. ولكن كل ما استطاع أن يراه بين طيات الصفحات المكتوبة والأيقونات هو الحجر. بدأ بحثه في أول الأمر بشكل رصين، وبعدها زادت عملية البحث جنونًا. وفي الغروب الثالث عشر، وبجوار مقبرة الشهداء المخلدة، همس أحد جواسيسه في أذنه أن الحجر مخبَّأ في بيت «موسى بن أزاي» أحد التجار المقيمين بحارة اليهود. وبناءً عليه أمر «قسطنطين» حراسه بأن يُحضروا التاجر له. وفقًا للقانون الإمبراطوري الذي كان يسمح لليهود في هذه الحقبة بأن يشغلوا كل المناصب حتى المناصب الرفيعة مثل منصب مديري المحاكم، قرر «قسطنطين» أن يستقبل «موسى» هذا بابتسامة عريضة.

يمكنه تخيلهما معًا على النحو التالي: التوتر الذي يملأ جسد الحاكم مخفي بصورة سيئة في عباءته المصنوعة من القطيفة الخضراء، وقد ارتسمت على وجهه ابتسامة متشنجة، وجسد الرجل اليهودي

المقوس الذي ظهر من بعيد وهو في طريقه من المدبغة متوجهًا نحو القصر، وقد ودّع كل النكات التي كانت تنطلق حول طاولة العائلة، واستبدلها بالهمهمة الهادئة التي تسود الكنيس.

قبيل وقوفه أمام الحاكم، كان قد تخلَّص تقريبًا من كل مخاوفه، وانحنى أمامه ليس من منطلق الخنوع لمعذبه المحتقر ولكن بسبب الآم الروماتيزم الوراثي التي كان يعاني منها. اعتقد «قسطنطين» أن التاجر اليهودي يسخر من السادة المسيحيين المتعجرفين الذين استهلكوا كل مهاراتهم على الموضة والمؤامرات وفي مضمار السباقات ولم يعد لديهم المزيد من الوقت لكي يتذكروا شعبهم وأهلهم.

مرة أخرى يقطع صوت الرجل السوري الأجش المشهد الذي تخيله الراكب.

لم يسبق لليهودي أن استخدم الحجر من قبل. يقال إن حاخامه قد نصحه ألَّا يفعل، مكررًا كلمات الحاخام «هيليل» أمام الجميع: «لا تكن بارزًا ومعروفًا في مجتمعك! ولا تؤمن بذاتك حتى يوم وفاتك! واقتبس بعض عبارات «سيمون بن زوما» المعروف باسم «ابن زوما» لحكمته وعطفه، وتبع ذلك الاقتباس بقول «ابن زوما»: «من رأى منكم «ابن زوما» في أحلامه فقد ضمن التفوق في دراسته».

ولكن من تأثر وتحمس لدراسته، فسينعم بجنة الآخرة، وسيودِّع قدرته على التفكير العقلاني السليم. على الرغم من النصيحة، لم يشأ «موسى بن عزاي» أن ينفصل عن الحجر المعجز واحتفظ به في تابوت في حجرة ما في منزله في مكان مخفي لا يعلمه أحد سوى زوجته.

كان يغلق الباب على نفسه كل مساء في تلك الحجرة، ويخرج التابوت ويفتحه ليحدق في الحجر، وهو مفتون به. وحتى عندما عاقبه «قسطنطين» بأقسى أنواع العذاب، ظل «موسى» صامدًا رافضًا الكشف عن مكان الحجر. وبالتالي قام «قسطنطين» بمنتهى المكر والدهاء بتوجيه أوامره لحراسه بإحضار زوجة «موسى» وأبنائه لحجرة التعذيب الموجودة تحت الأرض. هناك اكتشفوا مكان احتجاز أبيهم، وقد استحال الرجل إلى كومة مختلطة من اللحم الممزق والملطخ بالدماء. وجدوه مقيدًا بالأصفاد ويئن ويتلوى من شدة الألم الذي ينبعث مما كان يعرف يومًا بأنه وجهه. كانت إحدى عينيه خارج مقلتها لتكمل تلك الفوضى المرعبة، والأخرى ظلت تتحرك في جنونه بفعل ذلك الألم. لكن «راشيل» زوجة «موسى» المطيعة، من أجل كل ما نشأت وتربت عليه وكل ما سمعته من قصص المعاناة التي كانت تروى عن أجدادها، لم تحتمل نظرة اليأس والإحباط المجنونة التي تملأ عيني حبيبها. عين لم تعد حتى تقوى على التعرف عليها من هول ما لقته من العذاب. وكانت النتيجة أن «قسطنطين أناستازيس» قد حصل على حَجره وعلقه في رقبته. يقول الناس إنه عندما ظهر أمام خدمه في صبيحة اليوم التالي، كان أشيب الرأس وكانت نظرات عينيه متوحشة وقد شوهد من قبل البعض وهو هائم على وجهه بين الحقول، ومعطفه الأرجواني يرفرف خلفه. وقد انطلق بحصانه بصورة جنونية، وظل يبتعد حتى اختفى من أمام أعين جنوده المذهولين الذين ظلوا يراقبونه وهو يبتعد ويختفي خلف جدران المدينة.

جال بخاطر الرجل وهو ينظر إلى وجه أصغر الحاضرين المتوتر، أنه من المعتاد إساءة الظن بالعديد من هؤلاء الشباب الصغار سريعي الانفعال الذين ينظر إليهم باعتبارهم شباب طائش

يستنزفون أنفسهم في متع رخيصة في المدن. ففي حقيقة الأمر هؤلاء الشباب ممزقون بفعل الارتباك والتشويش والبحث العقيم عن المعنى.

- ولم يعد مرة أخرى. في البداية عثروا على جواد بلا فارس وبعد ذلك وجدوا جثته ملقاة في إحدى الطرق الممهدة بالغابة. وكانت جمجمته مهشمة. وقد عرف بعد ذلك أن اسم الحصان الذي انطلق به هو «ثيوفيلوس» وقد سُمي على اسم ذلك الشخص الذي باع روحه للشيطان ووقَّع على العقد بدمه.

- والحجر، ماذا عن الحجر؟ كان صوت هسهسته يشبه الصدى الخافت القادم من الجحيم. كيف حصلت أنت على الحجر؟

حدَّق السوري فيه بعينين منتفختين محتقنتين بالدماء.

- قيل إن روح اليهودي المعذبة قد مسَّت الحصان. فضربة حافر الحصان التي هشمت جمجمة اليهودي، لا يمكن أن تكون قد تمت بهذه الدقة بواسطة حيوان لا يفهم. لا بد أنه قد تم التحكم فيها بواسطة يد بشرية.

بدا له أن صوت السوري قد ارتعش كصوت رجل عجوز، أو ربما ارتعش بسبب ثقل تلك اللحظة المتوترة التي سحقت الحاضر.

- عندما أمسكت بالحجر، وشعرت بملمسه على جلدي.. كنت شابًا مندفعًا. في طولك تمامًا.. قوي وظمآن.. والآن..

أمسكت اليد الضعيفة الذابلة بالحجر وقد نقشت الرسالة النبيلة على سطحه: رسالة البشر المنحدرين من النسل الذهبي؛ الآلهة المتجسدة في هيئة بشرية الذين استمتعوا بعالم وحيدات القرن البيضاء.

كان مقدرًا لرسالتهم أن تحيا من خلال جشع وطمع واستهتار ورعونة أحفادهم المخلوقين من الطين: «ابن عزاي» النبيل.. النبيل «قسطنطين»، السوري البائس الفقير ونفسه، والشاب اليافع الذي التهم الحجر بنظراته.. جميعهم أسرى حقارتهم وخستهم ووضاعتهم.

همس أبوه الذي كان يعشق «أفلاطون» بجنون في أذنه وهو على فراش الموت، أخذ يحك رأسه وكأنما كان يحاول تخليص نفسه من القمل الذي علق به.

- هل يمكنك أن ترى هذا التين الموجود هناك؟ لقد أحضرته أمك. هل تراه رائعًا وجميلًا؟ مليء بالعصير؟ ولونه الداخلي أرجواني غامق. لكنني أقول لك إنه نتن وعطن! نتن! إنها تسممني، يا بني! انظر إلى تلك الشوائب التي تطفو على سطح حسائي؟ أمك العاهرة تقول إنها قطع من السمك الطازج، وقطع بطارخ يسيل لها لعابك. ولكنني عندما قطعته بالسكين اكتشفت أن رائحته كريهة!

لقد نجح أبوه في إقناع نفسه بأن أكثر حليف مخلص له.. الإنسانة الوحيدة التي ظلت بجانبه في سنوات المنفى الصعبة، والتي تبعته إلى الجزر الصحراوية، وشجعته ونصحته وأنجبت له ولدين ربتهما على العز والدفء، كانت تحاول أن تسممه. حتى والده، ذلك النموذج اللامع للمعلم والناصح، لم يكن قادرًا على أن يهرب من وصمة الشيطان ومن غوايته، ما الذي يأمل فيه هو نفسه بعد ذلك؟ وهو أكثر انحطاطًا من والده، ومدنس أكثر منه؟ النفي الذاتي، ربما، لكن أين؟ فوالده يمتلك منزلًا به مكتبة

والوقت الكافي ليترجم الكتب التي تتحدث عن الحيوانات في أمسيات الصيف الدافئة، لكنه تحطم في النهاية. ما الذي يمتلكه الآن؟ منزل عائلته المهجور الذي لا يرعاه أحد بعد أن ورط أخيه نفسه في خطط أولئك المخصيين، ولم يزر هذا المكان بعدها أبدًا.

عندما نهب أولئك الذين يسمون أنفسهم حماة الإيمان - الذين يرتدون سن خنزير بري يتدلى من أعناقهم السمينة - المدينة الإمبراطورية ودنسوا ميادينها وهم يصبون لعناتهم والعظام المهشمة في احتفالاتهم اللا نهائية، تأكد من أنهم في المرة القادمة لن يتوقفوا عن تدمير البوابات وسلب ونهب كل شيء. كان يحمل رتبة الـ»برونوياي» في الجيش.. كانت رتبته في أوقات مثل تلك ترمز إلى قادة الجيوش الصغار، لكنها لم تجلب سوى الاتهامات، والمؤامرات، والشكوك. لوقت قصير، نجح في الهرب من كل ما تحمله تلك الرتبة، ولكنه كان يعرف أنه سيقع في نهاية المطاف في شركها.

ربما خلقه الرب عقيمًا لحكمة ما؛ لكي يتمكن بسهولة من الانسلاخ من كل شيء. إن كان مقدرًا له أن يكون نصيبه من الخسارة أكبر من نصيبه من السعادة، إذًا فلم لم تتنبأ رقصات خادم الصخر الناعمة بهزيمته الأخيرة تلك؟

ماذا لو قام الرجل بإلقاء الحجر في أعمق الكهوف أو تركه في أبعد الصحاري؟ لقد طارد السوري عبر دروب الإمبراطورية كلها، وهو أمر شاق ومرير يشبه القفز في المجهول. والآن وبعد أن وجده أخيرًا في مسكن أقزام الغابة، تقبَّل الحجر المنقوش بهدوء وسكينة - تقريبًا بفتور. هل يجب عليه أن يتركه لأصغر الحاضرين؟ ذلك الذي خرقت نظراته الحادة ظهره؟ أو أن يخفيه في صدره وهو يرسم على وجهه ابتسامة منتصرة؟ كل الأمور تتشابه. راقبته العين المعتمة الموجودة في منتصف الحجر ببرود؛ كأنه نملة، أو بقعة غير مهمة في لا ماهية الوقت. وسواء في اليوم التالي أو بعد عشرة سنوات، سوف يتم استبداله بغيره: مجرد شيء عابر في الوقت.. ساذج أو ذكي أو يعاني، ولكنه في كل الحالات تافه، ووضيع. إنساني.. مفرط في إنسانيته.

القصة الخامسة

قصة عيد الميلاد

«يجب أن تُروى أحداث هذه القصة الخيالية في الليلة السابقة لليلة ميلاد أبينا الفقيد».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كانت مقاعد» الميني باص» تشبه لحد كبير الكراسي ذات المساند الموجودة في أروقة الفنادق الفاخرة وهي أفضل بكثير مما يتوقعه أي شخص في «ميني باص» سياحي أصفر اللون. في كل صف يوجد مقعدان فقط من تلك المقاعد، وثمانية في «الميني باص» بأكمله، ناهيك عن مقعد السائق والمقعد المجاور له. كانت المقاعد وثيرة بدرجة تسمح للشخص بأن يضطجع للخلف ويسترخي ليحظى بغفوة ممتعة خلال الرحلة. وفي الحيز الموجود بين المقاعد توجد طاولات صغيرة لكي يضع عليها المسافرون قهوتهم أو العصير. خلاصة الأمر أن الراكب سيتملكه شعور بالراحة كأنه في بيته بفضل تلك التجهيزات!

ركب الشاب «الميني باص» بالفعل وكان متوقعًا أن يأتي أبوه ليجلس إلى جواره. لكن فجأة ظهرت إحدى السيدات وتصرفت كما لو أنها تعرفه. اقتربت منه، وجلست على الكرسي المجاور له دون أن تسأل إن كان المقعد شاغرًا أم لا. في تلك الأثناء، جلس والده دون شكوى على الكرسي المجاور للسائق. كان ذلك المقعد أضيق وأقل راحة من بقية المقاعد.

التفتت السيدة إليه على الفور بأنفها الذي يشبه المنقار الحاد وتحدثت معه بصوت مرتفع.

- ما رأيك؟ هل تعتقد أننا سنصل إلى وجهتنا قبل منتصف الليل؟ بعد تلك الرحلة الطويلة قد يصبح والدك بلا حول ولا قوة كالطفل. أمَّا أنا، فيجب عليّ القيام بالكثير من الحركة هنا وهناك كي أهيء المنزل وأضعه في سريره في الوقت المحدد.

مالت نحوه وهي تتحدث.

كانت هذه السيدة ترتدي معطفًا مصنوعًا من الفراء الخفيف ووجهها مغطى بمساحيق التجميل وكل ما استطاع أن يشمه منها هو رائحة الصوف واللحم المملح. كانت السيدة تتمتع بمزاج جيد وقوام رشيق، وترتدي ملابسها بشكل أنيق كأنها ذاهبة لحضور حفل ما أو مهرجان.

- أليس كذلك يا أبي؟

صاحت بصوت عال في اتجاه والده في الوقت الذي كان يعج فيه «الميني باص» بالركاب الذين يصعدون ويبحثون عن مقاعدهم.

- أجل يا حبيبتي، أنت على صواب.

«ما الذي أصاب والدي؟»، لكنه لم يستطع أن يكمل طرح هذا السؤال على نفسه حتى باغتته تلك السيدة بثرثرتها.

- الزواج شيء نافع ومفيد جدًا إذا بُني على أسس وقواعد قوية. ونحن جميعًا نعلم من الذي يرسي تلك الأسس والقواعد؛ النساء بالطبع! أليس كذلك، يا أبي؟

لحسن الحظ، تردد صوت ما.. لم يكن صوت أبيه لكنه كان صوت السائق وهو يصيح نحو الخلف:

- هل ركب الجميع؟ هل نحن مستعدون للتحرك؟

- بالتأكيد!

رد جميع الركاب في وقت واحد بتناغم وانسجام.

- حسنًا. فلنتناول بعض من هذه. اعتبرها بداية جيدة لهذه الرحلة..

قدَّمت له السيدة الثرثارة بعض البرقوق المجفف «القراصيا» الذي أخرجته من إحدى العبوات، كانت «القراصيا» بلا بذور ومحفوظة داخل علبة لكي تحتفظ بعصارتها. وبينما هو يتناول حبة القراصيا المجففة الرابعة، جال بخاطره أنه قد يكون هناك بعض الطيبة والخير في تصرفات تلك السيدة التي تتميز بالاندفاع. وكان الشاب السمين صاحب الشارب سعيدًا جدًا لا لشيء سوى لأنها كانت تقدم له المزيد من حبات «القراصيا».

- أنا أعرفك لقد سبق ورأيتك في مكان ما..

أخبرته السيدة.

- لقد سبق ورأيتك في التليفزيون. أجل، أنا أتذكرك. لقد رأيتك في إعلان «بيرة سكوبسكو».

- آه! لقد كان شيئًا دون أهمية، شيئًا صغيرًا قمت به مقابل الحصول على المزيد من المال. لكي أكون أمينًا معكم، على الرغم من ذلك، أنا لست من كبار المعجبين الكبار بالبيرة. أنا شخصيًا أفضل زجاجة من النبيذ الجيد.

على غير المتوقع من شخص في مكانته، إلا أن كلمات الرجل الشهير اصطحبتها حركات تمثيلية قام بها بيديه.

- أنا «هوريس سفيكالو»، الممثل.

غمغمت السيدة وقالت:

- أنا أعلم أن لك اسمًا آخر مضحكًا.

والتفتت كي تتفحص ملامحه بفضول صريح.

- أجل، أجل إنه أنت! أبي، هذا الرجل المدعو «هوريشيو» صاحب اللقب المضحك، مسافر معنا.

أضاف بصورة مهذبة:

- «سفيكالو» الممثل.

تساءلت السيدة:

- ما هي آمال وتطلعات ممثل مثلك في الوقت الحاضر، «هوريشيو»؟

وحدقت بصراحة في وجهه.. وهي إحدى عاداتها الأكثر إزعاجًا على الإطلاق. ظلت لبرهة تنتظر إجابته. بدأ الممثل السمين تفسيره بنغمة صوت هادئة مصحوبة بالمزيد من الحركات النشطة.

في لحظة ما، نصل جميعًا لنقطة نعتقد فيها أننا قد وصلنا إلى الحضيض.

في بداية الرحلة، كان»هوريشيو» والسيدة أكثر المتحدثين. إلا أنه ما لبث أن انضم لهذا النشاز خمسة من أصوات المسافرين الآخرين، إلا أن صوت السيدة ظل هو الأعلى بينهم. ومن ناحية أخرى، بقي والده ملتزمًا الصمت بجوار السائق.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- نصف ساعة راحة.

صرخ السائق.

على الرغم من اعتياده على الاستراحات الغريبة المنتشرة على جانب الطريق، إلا أن تلك الاستراحة كانت فريدة في نوعها. فعلى الحائط المقابل للباب، فوق «الكاونتر» الذي من المفترض أنه «البار»، لكنه في الحقيقة بدا كمنضدة قديمة ومسروقة من مخزن أحد الجامعات وكُشط سطحه. يوجد كذلك على سطح «الكاونتر» عَلَم مبتكر مصنوع من أوراق التغليف ومثبت بأنواع مختلفة من شرائط اللصق؛ به شمس، وهرم وسندان حداد ومطرقة وكماشة تم رسمهم عليه، وأحيط بمجموعة من صور «الإسكندر الأكبر»، العلامة المقدوني «جوستيه ديلشيف»، والأستاذ البلغاري «داميان جوريف» والرئيس المقدوني السابق «كيرو جليجوروف». وعلى الرف الموجود فوق البار، يوجد عدد من براميل النبيذ المصنوعة من البلاستيك الشبيه بالخشب. وتم إدخال صناديق مملوءة بشاي الأعشاب بينهم، أو على الأقل هكذا تقول الملصقات الموجودة عليهم والمدون عليها اسم نبتة «القديسة جون» والنعناع والزعتر والريحان.

يتوافق اسم تلك الاستراحة «نادي المصريين» تمامًا مع مظهرها!

تم شغل طاولتين فقط. على واحدة منهما جلس رجلان يلعبان لعبة الـ»التشيكرز» أو «الداما»، واثنان آخران يشاهداهما وهما يلعبان. بينما جلس على الطاولة المجاورة، رجل وحيد يرتدي معطفًا رماديًا دون أزرار فوق قميص مخطط وبنطلون أبيض بحمَّالات ويرتدي طاقية بيسبول على رأسه. كان الرجل يدخن ويحتسي شيئًا ما من الكوب محدثًا صوتًا عاليًا وهو في حالة من الذهول والحيرة دون أن يبدي أي اهتمام باللعبة. أسرع باقي المسافرين لكي يحتلوا الطاولات الشاغرة الباقية، تقودهم السيدة ذات الأنف الحاد الذي يشبه المنقار.

- هيا بنا نجلس إلى جواره.

قال «هوريشيو»:

- هل يمكننا أن ننضم إليك؟

- تفضلوا! لقد كنت أفكر في هذه اللحظة، كم سيكون لطيفًا لو تبادلت بعض الكلمات مع أهل بلدي؟

ظهر النادل في المشهد، وطلب «هوريشيو»:

- زجاجة صغيرة من نبيذ «الإسكندرية» وزجاجة «كوكاكولا» له. وأنت؟

- مثلك.. سوف أتناول بعضًا من النبيذ، فالبعض يقول إن الأمور لا تسير على ما يرام مع القهوة، لكن اليوم هو يومي الاجتماعي.

- أنا سعيد حقًا لأننا التقينا. هلا طلبت منك شيء ما؟ هل تريد أن تعرف على سبيل المثال لماذا نقرع كؤوسنا ببعضها؟ نحن نفعل ذلك لأننا نريد لكل حواسنا أن تسعد. هل ترى لون النبيذ. تمامًا مثلما تشم باقة من الأزهار، وقبل أن تتجرعه تقرع كأسك من النبيذ لكي تسمع صوته!

قال الرجل:

- هذا رائع.

وضحك بصوت مرتفع.

- ليست بقصة طويلة، لكنها مُزحة طويلة. من أين أتيت؟

- من بعيد. البارحة صباحًا كنت في ألمانيا. ووصلت إلى «سلوفينيا» في المساء. والآن أنا هنا. لكي أتمكن أخيرًا من التحدث مع أحد أبناء وطني بلغتي الأم. فالإنسان يحتاج إلى بعض الحظ كذلك. في صحتك!

بعد تناول عدة رشفات من النبيذ، يصبح الإنسان أكثر مرحًا.

- رئيسي في العمل.. رجل استثنائي! لا أدري بالضبط كم الأرباح التي يجنيها لكن كل ما يمكنني أن أخبرك به هو أنه ملياردير! وهو يفهمنا جيدًا. ويفهم عماله، فأنا، على سبيل المثال، يسمح لي بالعودة إلى بيتي كل عيد ميلاد على الرغم من أنهم لا يحتفلون به في التوقيت نفسه الذي نحتفل نحن فيه.

قال «هوريشيو»:

- عندما وُلد مسيحنا، كان مسيحهم قد بدأ بالفعل يرضع ويبكي ويضحك، حتى المشي.. كان موهوبًا كما هي عادته.

ابتسم الرجل ابتسامة باهتة على مزحة «هوريشيو»، واستمر في سرد أحداث قصته:

- لكن رئيسي في العمل وافق. وقال لي: «لقد أثبتَّ أنك عامل ماهر طوال تلك السنوات. ولم تشتكِ يومًا ودائمًا ما كنت تعمل لأوقات إضافية لذا يمكنك الذهاب إلى موطنك الأصلي لتقضي عيد الميلاد الخاص بك، إن واظبت على العمل بجد، فلن أمنعك يومًا من الذهاب». وقد أوفى الرجل بوعده. حيث

يقوم بتحديد هدف معين لنصل إليه، فإذا ما تخطيناه، وحققنا هدفًا أعلى، يمنحنا مكافأة مالية على الفور.

- هذا كل ما يهمني في الأمر.. النجاح! فالعمل يعني الربح. هكذا هو رئيسي في العمل.

- أعتذر عن مقاطعتك، يا سيدي، لكن ليس من السهل أن تناقش موضوع الثقافة وأنت عالق في حظيرة.

- ما الذي تعنيه بذلك؟

- في عالم الحمام، إذا سمحت لي بعقد المقارنة، فالحمام القائد يظل طوال الوقت يتبرم من باقي الحمام حتى لا يحصلوا على حبة واحدة من الفتات. ولكنه يبقى جائعًا هو الآخر. على الجانب الآخر، في عالم البشر، يظل مديرك يشتكي كي يحثك على العمل طوال الوقت ويكنز هو الأموال.

- لا أوافقك الرأي، فرئيسي يدفع لي بسخاء. فأجري حوالي خمسة أو عشرة أضعاف أجرك.

أجاب «هوريشيو»:

- هذا لا يدهشني بالطبع هكذا تسير الأمور الآن.

وأضاف بعد ما صمت قليلًا، متحدثًا لنفسه أكثر من الآخرين:

- لقد أصبحت اهتماماتنا الشخصية أكثر ما يشغلنا في هذه الحياة. نحن جميعًا نرتدي أقنعة الرحمة والتفهم والخنوع كي نكون قادرين على استجداء المزيد من المال. لكنك إذا ما نظرت بداخلنا، ستكتشف أن أرواحنا بائسة، نحن نحاول أن نقنع أنفسنا طوال الوقت بأننا مختلفون. النجاح؟ ما هو النجاح؟ هل تعتبر نفسك شخصًا ناجحًا؟

- أجل، بالطبع..

- حسنًا، أنا لا أعتبر نفسي كذلك. لطالما تمنيت ذلك.. أن أكون ناجحًا في الماضي. في مهنتي. فالنجاح سريع الزوال. فاليوم، ستشعر بأنك في القمة، وستجد الناس يلتفتون إليك في الشارع، ويلتقطون الصور التذكارية معك، والأهم من ذلك كله، أنك ستكون ممتلئًا بالثقة. ولكن، بعد مرور عامين أو ثلاثة، ستجد أن الأمر قد اختلف تمامًا، وأصبح في غاية الصعوبة وكل المكانة والتفوق والعلو قد اختفوا بلا أثر. فيتجنبك المخرجون أو يقدمون لك بعض الأدوار المهينة كي تؤديها. وتبدأ بالشعور بالشفقة على نفسك، وتقيم الحداد بسبب قدرك السيئ، وبأنك مجبر على العيش معتمدًا على الدخل الذي تحصل عليه من تمثيل تلك الأدوار الحقيرة في هذا المكان البائس في تلك الأوقات الغبية. وعلى الرغم من تمتعك بصحة جيدة، تجد نفسك وقد بدأت تجر قدميك من شدة التعب والإرهاق، وليس لديك المال الكافي لشراء هذا أو ذاك. وتصبح مضغوطًا بشكل دائم، وتبدأ بالصراخ في وجه الجميع وتتهمهم بأنهم حمير أغبياء وشيوعيون في حين أنك ليس لديك أدنى فكرة عن ماهية الشيوعية في الواقع. هذا هو بالضبط ما نعنيه بأن تكون ممثلًا مقدونيًا اليوم ولهذا السبب أقوم بعمل إعلانات عن البيرة.

يشبه الأمر بروفة المسرحيات؛ تحوَّل الأمر بالنسبة له إلى حالة ما بدا فيها وكأنه يتحدث إلى أناسٍ هنا وليسوا هنا في الوقت نفسه. وهكذا بدأ حماسه للحوار ينكمش. وبدأ بالشعور بعدم الراحلة في جلسته، فأخذ يغيرها. أنهى الجميع مشروباتهم في صمت. بدا الرجل الآخر وكأنه يريد أن ينهي مشروبه وينتهي من الأمر كله.

قال «هوريشيو» للرجل:

- دعني أدفع ثمن المشروبات!

- لا يمكن أبدًا! أنا الذي سأدفع لك ثمن الشراب، سوف أدفع ثمن مشروبك والمشروب الخاص بهذا الشاب كذلك، وللجميع، أما أنا فيجب علي الآن أن أعود لمقعد القيادة.. إنهم في انتظاري في القرية.

صافح الجميع بلطف وبمودة مصطنعة. وعندما قام الرجل واقفًا لكي يستعد للرحيل، ساعتها فقط، لاحظ الجميع أن وجهه كان شاحبًا وأن هناك هالات سوداء كبيرة حول عينيه.

قال «هوريشيو» فيما بعد:

- أنا أشعر بالأسف بشدة.

- لماذا؟

- لقد أحزنت الرجل. من وجهة نظري، يمكننا أن نقسِّم من هم بحاجة لمغادرة هذا البلد إلى مجموعتين مختلفتين عن بعضهما تمامًا. المجموعة الأولى، هي الأكبر والأوسع. وتتألف في الأساس من هؤلاء الذين تركوا بلادهم سعيًا وراء الأفضل. والمجموعة الثانية، وهي مجموعة المهاجرين الاقتصاديين الباحثين عن وضع اقتصادي أفضل.

أكمل قائلًا:

- ومقدونيا الوطن أعلنت استسلامها في أمرين شديدي الأهمية: التعليم وهجرة العقول، واللذان يترتب عليهما النتائج نفسها. ففي كلتا الحالتين مقدونيا تخسر، ويُجبر أهل البلد والمواطنين على ترك أوطانهم من أجل الحصول على حياة أفضل. حيث يصبح المكان الذي تحصل فيه على لقمة عيشك هو موطنك. صحيح أن الجميع مشغول بمناقشة الأمور السياسة.. في البرلمان، وعلى الورق، وفي الحانات وحتى في غرف النوم.. إلا أن الواقع يقول إن شبابنا يهربون. يذهبون وإلى الأبد!

أتى «هويسو» على آخر قطرة من النبيذ في كوبه، لكن رغبته المحمومة وظمأه الكبير للنقاش والحوار لم يتركا لي فرصة كي أتحدث حتى كلمة «لكن» لم أستطع قولها.. ولو لمرة واحدة.

- على الرغم من ذلك، يا عزيزي، هناك مجموعة أخرى من المسافرين الأكثر ندرة الذين لا يتوقفوا عن السفر حول العالم حتى في تلك الأوقات التي نسب فيها ونلعن الأجور والتأشيرات المخزية والمهينة. سوف تندهش إذا ما علمت عدد الشباب الصغير - وغالبيتهم العظمى من الفقراء - الذين سافروا من بلدنا إلى الهند وكوبا والصين. لم أستطع أن أستوعب فكرة تغلبهم على العوائق المالية،

ولكنهم نجحوا في النهاية. نعم يا عزيزي، من وجهة نظري فإن هؤلاء هم المسافرون الحقيقيون.. الحفَّارون.

- الحفارون؟ ما الذي تعنيه بذلك؟

- أجل، يا عزيزي، الحفارون، الذين يسافرون أفقيًا نحو الداخل.

ونحن في طريقنا للخروج من «نادي المصريين»، لاحظت أن ساحة انتظار السيارات لم تعد مثلما كانت عليه من قبل. والدي والمسافرون وسائق «الميني باص» جميعهم مفقودين والسيدة ذات الأنف الحاد الذي يشبه المنقار مفقودة هي الأخرى. لا يوجد سوى قطار ضواحي صغير يقف أمامنا الآن، وهو يتكون من جرَّار وعربتين صغيرتين.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

نفث القطار الصغير الدخَان بصورة مستمرة. سار بنا عبر المناظر الطبيعية الجبلية الرائعة المُغطاة بغطاء كثيف من الأشجار. كانت الجبال هادئة والقمم المستديرة مشجرة وخضراء لدرجة أنك لا تصدق أننا لسنا في فصل الربيع، ذلك لأن الطبيعة تبدو في أروع حللها وأوج روعتها فيه، على الرغم من كوننا في الشتاء.

- انظر إلى الجبال يا عزيزي. إنها الحقيقة الكاملة! تحتاج عدة ملايين من السنين كي تتحرك. ونحن البشر.. هنا بجوارها! ألا نبدو أكثر الكائنات عبوسًا ومشاكسة، دائمًا في عجلة من أمرنا؟ نبدأ شيئًا ثم نتركه سريعًا حتى لا نفقد الشيء الجديد. وهكذا طوال حياتنا!

فتح «هوريشيو» ذراعيه على وسعهما ورفع حاجبيه.. حركة قد يطلق عليها العديد أنها مثيرة للشفقة وعتيقة ولكنها تتناسب مع هذا النوع من الأشخاص بشدة.

- اركض، ثم اركض حتى يأتي يوم ما وفي لحظة ما، تتوقف. الرب وحده يعلم لماذا، ربما كي تنظر إلى إحدى الصور الفوتوغرافية، على سبيل المثال، صورة لهذا القطار.. سقطت سهوًا من ألبوم الصور الخاص بك، وإذ بك تنظر إليها بذهول وتقول: «يا إلهي! هذا الطفل، إنه أنا! كم عدد السنين التي مرت من عمري هباءً، ولا سبيل إلى العودة إلى الماضي!».

أنصت إلى ما يقوله «هوريشيو» وقد بدا الممثل بالنسبة له أطول وأسمن، ولكنه لا يستطيع أن يدَّعي أنه قد فهم بالفعل كل ما قاله.

لم تكن العربة مقسمة، فكان هناك صف وراء صف من المقاعد الخشبية، وجميعها تواجه مقدمة القطار. ينحشر الأطفال في المقاعد، يبدون في الصف الخامس والسادس. كانت الفتيات أطول من الفتيان الذين كانوا يتخبطون ببعضهم البعض كسرب يلتف حول الفتيات بصورة تشبه ذكور النحل وهي تلتف حول ملكة النحل.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كانت هناك مجموعة من الرجال يحفرون بجوار سكة القطار. وكانوا جميعهم يرتدون الزي الرمادي الباهت نفسه. بعضهم ارتدى قفَّازات قذرة وممزقه في يديه. وقف كان الأطفال ملتصقين بالنوافذ بينما القطار الصغير يزحف ببطء شديد بين العمال.

- من هؤلاء العجائز؟

تساءل الرجل، بدا مضطربًا بسبب صوته ذي النبرة الطفولية العالية.

- هم.. كيف يمكنني أن أقولها؟ إنهم هؤلاء الناس الذين ارتكبوا أشياء خاطئة في حياتهم والآن عليهم أن يعانوا بسبب ما اقترفوه من أخطاء.

- هذا هو السبب وراء قيامهم بالحفر بمثل هذه الطريقة؟

- نعم، صحيح يا عزيزي، هل ترى هؤلاء الموجودين على هذا الجانب.. الذين يرتدون قبَّاعات ولا يحفرون؟ الذين يحملون الأسلحة ويصرخون في وجه الآخرين؟

- نعم.. أراهم.

- هؤلاء هم الحراس. هم يتأكدون من أن السجناء لن يهربوا.

- هل يضربونهم؟

- هم لا يضربونهم وحسب، بل يحطمون عظامهم من شدة الضرب. يمر وقتهم ببطء شديد. إنه لعمل شاق أن تضرب الأرض الصلبة لتكسر الصخور كل يوم. يوم وراء يوم من الفجر وحتى الغسق، بواسطة فأس. لدرجة أنك تحلم بأن ترقد لتستريح لبعض الوقت، ولكن يجب عليك أن تبقي عينيك مفتوحتين لأن الحرَّاس الذين يراقبونك مثل الصقور، يبقون في انتظار أن تنهار حتى ينقضوا عليك كفريسة على شفا الموت.

كانت خدود أحد المتهمين، جوفاء وغائرة، يرفع عينيه كي ينظر إلى القطار الصغير. يمكنه رؤية ظلال سوداء حول عينيه وفرع نحيل من شجرة الكريسماس برزت من الجيب العلوي الخاص بزيه الرث. لماذا يذكِّره هذا الرجل المعذب البائس بأبيه؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- الفسيولوجيا البشرية ليست على ما يرام، يا عزيزي.

- ما هي الفسيولوجيا؟

- الفسيولوجيا هي ما يعلمه لك جسمك. وتتجسد في استيقاظك في الصباح بعد حصولك على قسط وافر من النوم: مستريح، ومنتعش، وهكذا، تفرك عينيك وبعدها.. يعطيك شيء ما بالأسفل إشارة! وتشعر بحاجة ماسة للتبول. ما الذي يمكنك أن تفعله؟ عليك أن تذهب للحمام كي تتبول، شيء ولا بد منه.

تقفز من السرير، ليس على قدمك اليسرى ولكن على قدمك اليمنى. لتكتشف أن فردة شبشبك اليسرى مفقودة. مختفية تحت السرير. تجثو على ركبتيك بحثًا عنها وتخبط رأسك بشدة في حافة السرير.. ليوقظك الألم بالكامل.

- هل تقسم على ذلك؟ كل ما أردته هو أن تذهب للحمام كي تتبول فإذا بكل هذه الأحداث تفسد مزاجك الجيد..وبينما أنت تناقش أحلامك، يجب علي أن أخبرك بشيء، أنني قد شكوت ذات مرة لإحدى صديقاتي الصغيرات اللطاف (وأكَّد «هوريشيو» على كلمة صديقاتي) أنني لا أستطيع النوم ليًلا وأن الأمر يزداد سوءًا شيئًا فشيئًا هل تعلم بماذا أخبرتني؟

- ماذا؟

- لا يمكنك أن تنام لأن عدد سنين عمرك قد تعدت مقاس حذائك! تخيَّل هذا يا عزيزي، وقد قالتها بمنتهى الصراحة! ولكنني أجبت بسرعة كافية: لكن مقاس بنطالي لا يزال أكبر من عمري، ها ها ها.

«هل هذا كله بسبب كونك سمينًا؟». هذا أول ما ورد على خاطره، لكنه شعر بالإحراج لأن تلك الجملة الوضيعة هي أول ما خطر بباله. وساعتها فقط، وهو يبعد ناظريه عن «هوريشيو»، لاحظ أنهما لم يعودا داخل القطار الصغير، وأن التلاميذ والمساجين والجبال كلها قد اختفت.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وحينها، كان في الغالب سيقول:

- ولكنني أعرفك! أنا أتذكرك جيدًا على الرغم من مرور وقت طويل، فأنا أتذكر أنني سافرت معك منذ عدة سنوات. أنت تشتغل بالتمثيل. وأنا أتذكر اسمك، هذا غير عادي... «هوريشيو».

- «هوريشيو سفيكالو» هو اسمك.... وقد التقينا لأول مرة عندما كنا أطفالًا صغارًا في قطار صغير خلال إحدى الرحلات المدرسية، أليس غريبًا أن يحدث هذا في مثل سني، فأنا الآن أصبحت جدًا لثلاثة أحفاد، وزوجة ابني - زوجته الثانية - حامل مرة أخرى بحفيد آخر. أليس هذا غريبًا أننا نلتقي مرة أخرى بهذه الطريقة؟ ولكن أنت.. أنت كما أنت! لم تتغير؛ الشارب نفسه، ولا علامة واحدة من علامات التقدم في السن تبدو عليك!

- حقًا؟

- وصوتك لا يزال كما هو. مميز جدًا! إلا أنني في حواراتنا ومناقشاتنا، قد تحدثت معك بثلاثة أصوات مختلفة: صوت طفل، وصوت شاب بالغ، والآن بصوت - كيف يمكنني أن أقولها؟ - شخص بالغ وناضج. واسمك هو «هوريشيو سفيكالو» هل أنا على صواب؟

- نعم، أنت على صواب.

شعر بأنه في حاجة إلى أن يهرش في رأسه كأن رأسه مملوءة بالقشرة على الرغم من أن الشعر الوحيد الباقي في رأسه هو الشعر الموجود في مؤخرة عنقه! لكن، وجه «هوريشيو» ما زال رقيقًا بسبب ابتسامته العريضة الصريحة.

- ابتهج يا عزيزي! لماذا هذا الوجه الكئيب؟ وإن كنا بالفعل قد تعرفنا على بعضنا البعض منذ فترة طويلة، فلماذا تعاملني بكل هذه الرسمية؟

- اعتقدتُ.. لقد حل الظلام بالفعل.. وأنا لا أستطيع أن أرى بصورة جيدة بنظارتي هذه، لقد كان من المفترض أن أغادر منذ وقت طويل.

- لا تقلق يا عزيزي، لا يوجد سيَّاح هنا، ولا سفاحين.

- وأين نحن الآن يا سيد «سفيكالو»؟

لكن «هوريشيو» كان قد اختفى. ما الذي يحدث لي؟ لقد كنا معًا منذ لحظة وحتى الآن، وفجأة، لم يعد موجودًا. قد يتحوَّل إلى شيء آخر مختلف عمَّا توقعته. وكأنني كنت أعيش حلمًا سريعًا. أولًا، المضارع، وبعدها الماضي، والآن هذا؟ وإذا حكمت على الأمور من منطلق سني، لا بد أن هذا هو المستقبل.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

سيواجه وحدته بصحبة أحد المناظر الطبيعية الموجودة في القصص الخرافية التي تُقدم في هوليوود باستخدام الأضواء الصناعية التي تجعل الأمر يبدو وكأن الليلة القادمة قد توقفت. ستصبح حدود الشجيرات المزدهرة بالورود الحمراء والبيضاء مرئية، وعيون في لون العنبر تلمع بين تلك الشجيرات؛ ربما هي عيون القطط السوداء أو الذئاب الضارية؟! سيهيم على وجهه تائهًا في حارات وممرات القرية المغطاة بالغبار السميك المحترق بحيث ترفع كل خطوة من خطواته سحبًا صغيرة من الغبار.

- أنت أيها الغبي العجوز. أنت أيها النفاية!

سوف يسمع صوت يشبه الزمجرة، وسيسمع صوت أقدام خارجًا من تحت الأرض. بعدها، سيرى طيف أو شبح ويشعر بحضوره المفاجئ الذي يشبه برودة القبر. وسيكون رأسه وجسده مغطيان بمعطف تنبعث منه رائحة نتنة. وسيمد ذراعه الأيمن لكي يشير له بأن يتبعه. وعلى الرغم من الخوف المروع الذي يجمد أوصاله من رأسه وحتى أخمص قدميه، سوف يتبع ذلك الشبح بصورة تلقائية مثل «الإنسان الآلي» عبر ممرات القرية وطرقاتها.

هذه الحارة، ستكون نصف مرئية في ضوء القمر الصناعي الشاحب، والمؤدي إلى المقبرة، حيث صور الظلال المحلقة للصلبان والمقابر الشائكة في الأرض الغامضة، لن يتسببوا سوى في شعوره بالمزيد من البرودة في جسده المتيبس. وسوف يتسلل الشبح بصمت إلى الداخل عبر البوابة شبه المفتوحة للمقبرة.

بعدها، سيجر نفسه إلى هناك، وهو يتمايل. حينها، سيتوقف الشبح وسيشير بإصبعه العظمي الطويل إلى نقش ما موجود على مقبرة مجهولة. وسيقرأ اسمه على الحجر:

- لا...لا...لا...

سوف يتلعثم وفكه السفلي سوف يرتعش بلا سيطرة.

- سوف تتعفن!

سوف يسمع مجددًا صوت دمدمة قادمًا من القبر.

بعد ذلك، ووسط كل ذلك الجنون، سوف يخرج من الظلام كائن ضخم مغطى بالشعر. وسيقترب منه وهو يزمجر ومخالبه ممدودة، ويعرج على قدميه. كل هذا سيكون كثيرًا جدًا عليه. سوف يصرخ ويهرب، وسوف يتعثر ويسقط، سيحاول الهرب بعيدًا بأقصى سرعة ممكنة من هذا المكان البشع، لكنه أخذ يصيح في خوف ورعب. وستظهر يد خفية، لكنها لا تنتمي للشبح!!! وسوف تجبره على العودة وسيرى دبًا يضرب الشبح ضربة واحدة بمخلبه. يسقط على إثرها الشبح على الأرض ويختفي في التو. أمَّ هو، فسيستمر في الهرب، لكن الدب سوف يطلب منه أن يعود.

- توقف يا بني! إنه أنا.

سيتعرف على الصوت وينتظر. وسيقترب منه الدب الضخم وهو يلهث لكنه لن يكون ضخمًا مثلما بدا في المرة الأولى. سوف يسقط قناع الدب ويظهر وجه أبيه من تحته وسيمًا ومهندمًا كما كانت عادته دومًا وبجوارهما سيظهر «هوريشيو» لكي يخبره بصوته الجهوري الجذاب:

- أنت تعلم أن الإنجيل قال: «لو كان للفرد الإيمان بمقدار حبة من خردل، لقال للجبل: انتقل من هنا إلى هناك فينتقل، ولما عجز عن شيء».

وسوف يشعر أنه خفيف كالريشة، وسعيد كالملاك، وجميل كطفل في الصف الأول. بهذا المزاج المتفائل سيسمع صوت الجرس وهو يدق.

- ما اليوم؟

يجيبه والده و»هوريشيو» في صوت واحد متناغم:

- إنه عيد الميلاد!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وإذا به يحتضن والده، ويبكي ويضحك في الوقت نفسه. ويحملق في السقف لبعض الوقت وهو حرفيًا في حالة من التوهان: ما هو اليوم؟ وأين أنا؟ وكم أبلغ من العمر؟ ثم بدأ ينظر حوله. فالسرير سريره. والحجرة حجرته. ونسيم شهر مايو المنعش يتسلل عبر النافذة المفتوحة.

- يا لها من فوضى. أنا لم أحلم قط في حياتي بمثل هذا الحلم.

اتجه إلى النافذة وبدأ يستنشق الهواء عدة مرات بعمق. لكنه ما زال يشعر بالنعاس. حدَّق في الكتلة الخضراء التي تكسو جبل «فودنو». بدا الجبل وأنه قد اقترب من المدينة.

فجأة تذكر: كان عليه أن يكون في محطة الأتوبيس البري بحلول الظهيرة لكي يلحق بالأتوبيس في تمام الساعة ١٢:١٥. لم يكن أتوبيسًا، في الحقيقة؛ حيث إن الموظف الطيب في وكالة السفر أوضح له بأنه «ميني باص» حديث يتوافق مع المعايير الأوربية الحديثة.

- «ميني باص».

قالها وهو يحك فروة شعره الفوضوي.

- يبدو الأمر مألوفًا بالنسبة لي.

ظل يهرش في رأسه، ثم ذهب بعد ذلك إلى الحمام لكي يغتسل كما هي عادته كل صباح.

القصة السادسة

شقيقة "مارجان" الصغيرة

«يجب ألا تُروى أحداث هذه القصة الخيالية في أعياد الميلاد».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

عندما وضعت أمه شقيقته الصغيرة في اليوم السابق لليلة عيد الميلاد بنيويورك، كان «مارجان» يبلغ من العمر ثلاث سنوات. وبينما أمه في المستشفى، ربط «مارجان» الطاولة والكراسي الموجودة في المطبخ معًا بالحبل، وفعل الشيء نفسه مع شجرة الكريسماس، ثم ربطها بسريره. ما من مرة حكى فيها والديه ما فعلها ليلتها لأصدقائهم، إلا وانتابتهم نوبة من الضحك.

بعد مرور عامين على تلك الحادثة، عادت والدة «مارجان» مرة أخرى إلى المستشفى. وتلك المرة بسبب «بعض الأسباب النسائية». وبالمصادفة، حدث هذا الأمر قبيل حلول ليلة عيد الميلاد في نيويورك. ولكيلا تفسد الأم إجازة الأطفال، أعدت لهم الديك الرومي المشوي المحشو بالكبد والتفاح والزبيب قبل توجهها إلى المستشفى.

أُجريت لها العملية بنجاح، حمدًا لله، وفي يوم ٣١ من شهر ديسمبر، أحضر لها والد «مارجان» قطعة من لحم الديك الرومي الملفوفة بعناية في طبقها المفضل وأحضر لها كذلك باقة من الورود الصفراء التي تحبها.

تُرك الطفلان وحدهما في المنزل في ذلك اليوم لكي يلعبا. وعندما عاد والدهما من زيارة الأم في المستشفى، وفي اللحظة السابقة لدخوله المنزل، استطاع أن يسمع صوت ابنته الصغرى وهي تبكي. اقتحم الرجل المنزل بسرعة ليجد «مارجان» يجر أخته الصغيرة في أرجاء المنزل وقد لف حبل حول عنقها.

قرر الوالدان بعد تلك الحادثة أن يتخلصا من كل الخيوط والحبال الموجودة في المنزل. وقاما بالفعل بتنفيذ هذا الأمر بسرية تامة، كي لا يضايقا ابنهما. صحيح أنهما نفذا ما خططا له، لكنهما لم يستطيعا منع «مارجان» من التبرم والضيق.

ظل «مارجان» يفتش كل الأدراج والأرفف التي يمكنه الوصول إليها بحثًا عن حبل أو خيط قبل أن يقوم في نهاية المطاف بطلب الحصول على حبل من والديه. صرخ «مارجان» في وجهيهما وقال:

- سوف أذهب لأشتري واحدًا إن لم أجده هنا!

وبعدها بفترة هدأ فجأة وتوقف عن طلب الحصول على حبل.

كانت ليلة عيد الميلاد التالية تقترب. كانت عائلة «مارجان» تعيش في منزل محاط بحديقة، ورغم أن الأب لم يكن بستانيًا ماهرًا، إلا أن الشجيرات المفرطة في النمو والشجر المهمل كانت تمنحه بعض الراحة النفسية والاسترخاء والانتعاش عندما يمتلئ جو المنزل بالإزعاج والاضطراب.

كانت شجرة الصنوبر هي أطول الشجيرات في الحديقة، لذا قرر الوالد أن يزينها بالأضواء، والحلي والهدايا للإجازات القادمة كي يسعد الأطفال. وعندما صعد فوق أحد الكراسي لكي يعلِّق اللعب، لمح «مارجان» وهو مستلقٍ على الأرض هامدًا بلا حركة، وعنقه مربوط بحبل في «درابزين» سرير شقيقته.

سأل الوالد نفسه: «أين وجد «مارجان» هذا الحبل؟» أربكته الفكرة. على الفور جرى نحو الغرفة. كان «مارجان» ما زال مستلقيًا على الأرض، بلا حراك، وعينيه مغلقة، ولكنه كان يتنفس. تظاهر والده بأن شيء لم يحدث وترك الغرفة بهدوء وسبابته فوق شفتيه لكي يعطي بقية الأسرة إشارة بأن يحافظوا على هدوئهم. استمر «مارجان» في نومه على الأرض قبل أن يقوم أخيرًا من مكانه، وهو يشعر بالغضب ويفك الحبل عن عنقه ويدسه في الدرج.

بعد مرور وقت طويل، أصبحت شقيقة «مارجان» شابة ناضجة. وفي إحدى الليالي، حلمت بأنها رأت خيال شيء ما في غرفتها. فقامت وحاولت لمسه في الظلام. بدا وكأنه ثوب مصنوع من الصوف الخشن، أو كأنه مصنوع من حبال أو شيء من هذا القبيل. وبعدها حلمت بأنها حاولت أن تصرخ بصوت عال قائلة: «مارجان» أنا أحبك!». استيقظت بعدها وهي غارقة في عرقها.

وفي الصباح، أخبرها زوجها انها ظلت تصيح في نومها قائلة: «مارجان»، أرجوك!». لعل لسانها قد تثاقل، كما يحدث عادة في الأحلام. فبدتا كلتا العبارتين متشابهتين.

رأت ذلك الحلم المفزع في الكريسماس، وقبيل عيد ميلادها، وبعد مرو عام على وفاة شقيقها الأكبر بطريقة مأساوية.

القصة السابعة

الصيَّاد

«يجب ألا تروى أحداث هذه القصة - الخيالية أثناء تصفح المجلات النسائية».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

«من الحقائق المعروفة أن الألم الذي يسببه لنا أولئك المقربون لنا لا علاج له إلا إذا حوَّلناهم إلى غرباء. حينها، لا عزاء سوى لمن تم محوهم من الذاكرة».

- كريستا وولف، «كاسندرا»

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

عطر الغابة. رائحة البارود.. وبالتأكيد رائحة الموت.. كم هم مثيرين! يطارد الصياد الحيوان ثم ما يلبث أن يتوحد معه، ليصبح بعد ذلك جزءًا من الطبيعة، وبالتالي، جزءًا من الكل. ويصبح الرابط الذي يربط بينهما راسخ لا انفصام فيه: الرصاصة. حينها يبدأ الحيوان في فهم الصيَّاد وتتشأ بينهما رابطة عاطفية قوية. وهي، تقريبًا، نوع من أنواع الحب. فتقول له الفريسة:

- أنا الفريسة المطبوعة صورتها في عينيك وفي مركز هدفك. لقد جئت إلى هنا لكي تجدني وتحررني.

كل شيء يبدو هادئًا والشمس المشرقة تسكب ضيائها على المناطق الممهدة. في الغابة تستطيع أن تسمع صوت الحيوان وهو يتنفس لدرجة أنكما أنتما الاثنان تبدوان أثناء عملية الصيد وكأنكما تقفان على الحد الفاصل بين مملكتين؛ مملكة الأرض ومملكة السماء. ثم تسحب أنت بعد ذلك الزناد.

في تلك اللحظة تتجلى روعة الصيد، متجسدة في تلك التغيرات الإيقاعية للحياة والموت. مُنحت أنا من قبل الطبيعة دور الصياد، ومُنحت الغزالة المسكينة دور الفريسة، وعندما تبدأ لعبة الصيد، نتصرف نحن الاثنين وكأننا وحدنا في الغابة.

هؤلاء الذين اختبروا قوة الغابة لن ينسوها أبدًا! لما لها من قدرة كبيرة على إثارة الخوف والرعب في نفوس الكثيرين منهم بحيث تصبح كل مواجهة حقيقية مع الغابة أمر يجمد الدماء في العروق. فهم كلما سمعوا صوت خشخشة ما، تخيلوا وجود وحش متعطش للدماء مختبئ خلف كل أجمة أو شجرة.

لكن، هناك البعض الذين وقعوا بالفعل في حب الغابة، بأشجارها وظلالها، وقاطنيها وضوضائها. فالغابة هي مملكتي. لأنها شحذت حواسي بصورة جعلتني قادرًا على الجري لمسافات طويلة عند الضرورة وتسلُّق الأشجار برشاقة حتى أصل للفروع العليا، وعبور النهر في قفزة واحدة والسباحة في بحيرة الجبل في البرد القارص. ليس هناك فريسة سريعة جدًا أو قوية جدًا أو بعيدة المنال علي. سواء كانت أرنب بري، أو دب، أو خنزير بري، فأنا أمتلك دومًا زمام الأمور، ومجموعتي من الغنائم التذكارية المحنطة تزداد باستمرار.

أنا فقط أندم على أن الفرصة لم تتَح لي أبدًا لكي أصطاد وحيد القرن. يقال إن قرنيه يساويان ثروة. فالصيادون يقتلعون قرون وحيد القرن ويطحنونها ويقدمونها على أنها منشطات جنسية لراغبي المتعة. وتجد الناس على استعداد كامل لدفع الملايين من أجل الحصول عليها.

إن أفريقيا، على الرغم من أراضيها الشاسعة والغنية بالصيد، لا تزال بلدًا نائيًا - أو بالأحرى قارة نائية ومعزولة، لكنني، في نهاية المطاف، رجل ينتمي إلى ذلك المناخ وفرائسه.

فأنا صياد بالفطرة تمامًا، كما أنني منعزل بالفطرة: شخص مكتفٍ بذاته في كل الظروف والمحن التي مررت بها. أو هكذا كنت أعتقد قبل أن ألتقيها.

قبلها، حتى عندما كانت هناك امرأة ما في حياتي، لم تستمر علاقاتي العاطفية طويلًا أبدًا، بل كانت أطول علاقة تستمر لأسبوع أو أسبوعين على الأكثر، وعادة، كانت تبدأ تلك العلاقات خلال أشهر الشتاء عندما كانت الرغبة في البحث عن شريك تحرك الصيادين بالقدر نفسه الذي تتحرك به رغبات الذئاب والثعالب. لطالما وجدت الأمر سخيفًا عندما كانت تتم مناقشة فكرة إقامة علاقات عاطفية في فصل الصيف. لأنني أكون دومًا مشغول بالصيد.

ففي شهري يوليو وأغسطس، يكون العمل على أشده لدرجة أن موضوع النساء كان آخر شيء يشغل بالي. فلو أنني أطارد شيء ما في ذلك الوقت، فاعلم أنه - بلا شك – أحد الحيوانات، وإن لم أكن أطاردهم فإنني أراقبهم وأتابعهم وهذا بالطبع أمر يتطلب احتفاظي بكامل طاقتي، وليس تبديدها بالانغماس في الشهوات.

هكذا كنت وكانت حياتي قبل أن ألتقيها.

كما ذكرت من قبل. أنا لست مغرمًا بالمراسم؛ سواء كانت حفلات الزفاف أو مثيلاتها من التجمعات. لكن منصبي «كصياد ملكي» كان يُحتِّم عليّ تقديم تقرير أسبوعي عن عمليات الصيد التي تتم للبلاط الملكي. في ذلك الوقت، كان الملك ما زال المتحكم بمقاليد الحكم في البلاد. وقد نلت شرف هذا المنصب عندما أصبح الملك أرملًا، وبعدها لم يعد كما عهدته؛ أصبح شاردًا وتائهًا، وهو ما لا يليق بملك. أصبح الملك شارد الذهن طوال الوقت. وأصبح يفضل استنشاق الهواء العليل البارد خارج القصر عن الهواء الموجود داخل غرف القصر المدفئة. على الرغم من كون قصره واحدًا من أكثر القصور روعة في تلك الأنحاء من العالم. وأن يرتدي الجينز والتيشيرتات مقاس «دبل أكس لارج» الباهتة.

كان القميص الذي يرتديه محشورًا في حزامه المربوط فوق بطنه من الأمام ومرفوعًا قليًلا من الخلف. وكان يجلس طوال اليوم في حديقة القصر بين أشجار الفاكهة ونبتات الطماطم. وهناك كان يستقبلني وهو منشغل بتقليم وروده أو أثناء جلوسه على كرسي خشبي دون ظهر وهو يحفر في الأرض. كان يستمع إلى تقاريري عن حالة الغابات الملكية والأراضي المخصصة للصيد وهو شارد الذهن.

أحيانًا، كان يطلب مني في هدوء أن أروي له قصة عن شيء حدث لي بالفعل في الغابة. وكان ينصت إلى تلك القصص وهو شارد الذهن تمامًا كما هو الحال بالنسبة لتقاريري الرسمية. لدرجة أنني كنت

أشعر في بعض الأحيان أنه لا ينصت إلي على الإطلاق، لكنني كنت مخطئًا. فالحكاية التي قصصتها عليه عن الأرنب البري كانت ممتعة حقًا. (كنت أروي له كيف أن الأرانب البرية تحرك أنوفها باستمرار عندما يطعمون الصغار وعندما يستريحون).

- وأنت تقول إنهم يحركون أنوفهم الصغيرة طوال الوقت.

- نعم! إنه الوعي الذي يعمل حتى عندما يبدو العقل غير نشط.

قد يقاطعني أحيانًا بهدوء، دون النظر إلي. لكم رجوت أن أختلف معه في الرأي لأن عقلي كان دومًا يعمل بنشاط عندما أصطاد، إلا أنني كنت أشعر بالسعادة عندما أجده مستمتعًا بقصصي عن الصيد رغم حالة شرود الذهن التي كان يعاني منها.

لاحقًا، عندما تعاملت مباشر مع الملكة، خصوصًا بعد وفاته، خطر على بالي أن هذا الملك كان شاردًا وغريبًا وهو يتحدث معها، أقصد هنا زوجته الثانية المثيرة، وأنه كان غير سعيد بسبب ذلك. كانت هذه مجرد أفكار عابرة وردت على خاطري لأنني كذلك كنت عالقًا وسط إعصار عندما قامت تلك المرأة الفاتنة صاحبة الذكاء المتكبر الأناني بإحكام فخذيها الدافئين حولي.

لقد كان التأثير الذي مارسته علي رهيبًا! سارت الأمور بيننا وفق قاعدة منطقية غاية في البساطة. واحد وواحد يساوي اثنين. حيوان، طلقة رصاصة، فريسة، الغابة، شروق الشمس، غروب الشمس. لكن كيف يمكن لتهويدة رقيقة كهذه أن ترسلني في نوم عميق وأنا الصياد الذي طالما اعتاد أن يغلبه النعاس وهو بجوار نار مخيمه المنصوب في المنطقة الممهدة في الغابة والذئاب التي تعوي من حوله في الغابة. كنت أستغرق في نوم عميق ومع هذا كنت دومًا يقظًا، فبندقيتي ترقد دومًا إلى جواري وسبابتي دومًا على الزناد. عندما استيقظت في الصباح، كانت النيران ما زالت مشتعلة ولكن الذئاب كانوا قد رحلوا منذ وقت طويل.

لكنني لم أعد الرجل نفسه الذي كنته، ليس منذ أن جعلتني ملتصقًا بها وكأن المئات من المغناطيس الساخنة تجذبني إليها. منذ اللحظة التي انغرز فيها مخلب الدب في لحمي، سواء كلطمة أو كضربة قوية، تاركًا جرح غائر في جسدي. هكذا كان حبي لها يمزقني كمخلب دب! فبمجرد استيقاظي في الغابة، يتملكني التفكير فيها وفي كيفية العودة إليها بأقصى سرعة ممكنة.

ما الذي سأشتريه لها كهدية اليوم؟ دهن الدب لكي تدلك به عنقها ووجهها لتختفي التجاعيد وتبدو ملساء؟ إذا ما واتتني الفرصة وسمحت لي بقضاء الليلة معها في غرفة نومها، ففي الصباح التالي، وأنا خارج من القصر خلسة، كالعادة، وأقفز من فوق السور المليء بالرؤوس المعدنية المدببة، سأحاول بجنون أن أتخيل التفاصيل الخاصة بموعدي القادم معها.

يأتي الصباح مشمسًا وهادئًا، على عكس السماء الموجودة بداخلي والتي تتمزق بسبب البرق والعواصف، وتسيطر علي فكرة واحدة وهي؛ متي سألتقي بها مرة ثانية؟ كنت مخمورًا ومهووسًا بها! أمَّا هي فكانت تمارس ألاعيبها معي. فعلى سبيل الفكاهة، كانت تطلب مني أن أمضغ وأبتلع بعض من الزهور التي قطفتها لها من مروج الغابة. أو تأمرني بأن أتصرف مثل حيوان الغرير طوال اليوم، وأن أحضر لها خفَّيها بفمي، وأن آكل من وعاء على الأرض وذراعاي خلف ظهري.

في الوقت الذي كنت أحظى فيه بحواراتي – التي أتحدث فيها وحدي - مع الملك عن الأرانب البرية والطماطم، لم أكن قد التقيتها بعد، ولم أكن لأتخيل ما أصبحتُ. كما قلت من قبل، كنت شخصًا مختلفًا حينها.. حرًا من كل ما هو غير ضروري. كل تركيزي كان منصبًا على الصيد. لكنني في بعض الأوقات كنتُ ألتقي بابنة الملك الصغيرة.. «سنووايت» أثناء جلوسي مع أبيها في الحديقة.

كانت الفتاة الصغيرة خليطًا من اللون الأبيض والوردي. وكانت شفتاها تشبهان «الفراولة»، وعيناها كبيرتان وبريئتان مثل عيون الظبية. وقلبها نقي كقطرات الندى التي تنزل على أشجار الصنوبر بالغابة. وحتى الآن، عندما تدور الذكريات في رأسي كزوبعة مخيفة، أجدني أشعر بالراحة والهدوء وتجد الابتسامة طريقها لوجهي كلما تذكرت «سنووايت».

كانت الفتاة تشبه الحمامة البيضاء، لطيفة لكنها دائمة الحركة وأكثر فضولًا من والدها. لا يمكنها أن تجلس ساكنة للحظة واحدة. فهي طوال الوقت تتنقل من مكان إلى مكان، ولا تمل ولا تتعب من توجيه الأسئلة لي:

- عمو الصيَّاد. لماذا يأكل نقَّار الخشب البندق؟ لماذا يقول الناس هذا الشخص يمتلك عيون القط البري؟ لماذا تنام معظم أنواع الدببة طوال الشتاء؟ عمو الصياد، هل تغني الطيور السوداء عادة في تمام الرابعة والنصف من كل صباح؟ أو قد تجلس وتضع إحدى ساقيها على الأخرى على السور الحجري المنخفض الموجود في الحديقة، تغني أغانيها بصوت واضح نقي صافٍ. ورأسها ونظراتها متوجهة نحو الأعلى كما لو كانت قد بدأت حوارًا بالفعل مع طيور وجنيات الغابة.

كيف خطر على بال الملكة، وكيف صوَّر لها عقلها المشوه أنني قد أكون مريضًا لدرجة أن أرفع يدي لأقتل هذا المخلوق الجميل والرقيق؟ هل تصورت أنني أبله ومغفل لدرجة أن أخطئ الفتاة الصغيرة وأنظر إليها باعتبارها خنزيرًا أو أرنبًا؟ يا لها من روح عفنة وشريرة! لكن من ناحية أخرى، ألم أتصرف أمامها كالأبله. أو كمصارع مطيع مستعد للتضحية بكل شيء من أجل عشيقته؟ فتأثيرها علي كان رهيبًا ومهولًا منذ اللحظة التي عرَّفني فيها الملك على الملكة الجديدة، ونحن في الحديقة أثناء استماعه لتقاريري وهو شارد الذهن. في البداية تفاجأت عند رؤية اثنين من البالغين بين شتلات الطماطم في الحديقة بدلًا من الملك وحده، فقد اعتدت رؤيته إمَّا بمفرده وإمَّا بصحبة «سنووايت».

سمعت الخادمات ذوات المؤخرات الكبيرة وهن يثرثرن ويقلن: «إن الملك مأخوذ بجمال الملكة الجديدة وإنها قد نجحت في أن تلفه وتضعه خاتمًا في إصبعها منذ اليوم الأول، جاعلة إياه يرتعش أمام كل كلمة تقولها». على أنني يجب عليّ أن أعترف بأنني وجدت ذلك سخيفًا ومضحكًا. جعلني أتخيل الملكة الجديدة على هيئة «ميدوسا» برأسها المليئة بالثعابين، تطارد الملك البدين عبر غرفات القصر بصوتها الحاد.

ولكن ما رأيته أمام عيني كان مختلفًا تمامًا: فجسد المرآة الذي يقف أمامي عاريًا، على الرغم من ارتدائها لفستان قطني. لطالما اعتقدت أن النساء الإسبانيات هن فقط اللاتي يمتلكن مثل هذا الجمال الفائق الذي لا يُقاوم، أو على الأقل، سمعت بذلك. على الرغم من أنني لم أرَ مثل هذا الجمال قبل أن أراها. جمال يتوِّجه شعر أسود بري جامح رُوِّض في كعكة مستديرة، لها عنق طويل وملامح شاحبة، ونهد وثاب يرقص لأقل حركة. كان صوتها هادئًا ورصينًا ورخيمًا ومختلفًا تمامًا عمَّا تخيلته. ولكنني

عندما انحنيت لتحيتها، بدت عيناها سوداء داكنة وهادئة، ولكن وسط كل هذا الهدوء، يمكنك أن ترى نارًا بداخلهما. نظرت إلى من أعلى، تقيسني وكأنني عبد معروض في سوق النخاسة. لكن عينيها كانت في الوقت نفسه فضولية ومفعمة بالحيوية والنشاط وممتلئة بعدوانية أنثى الحيوانات.

بعد انقضاء أول لقاء بيننا، قضيت فترة ما بعد الظهيرة في الغابة كالعادة، جذبت روائح الحيوانات حواسي المشحوذة. لكنني لم أستطع الصيد. لم أستطع حتى أن أتحرك من مكاني. وكأن رأسي قد ضُرب بحجر سقط من السماء وارتطم بالأرض.

شعور بالخواء لم يكن مألوفًا لي. جاءني مصحوبًا بضربات عنيفة متتالية للقلب، تركتني في حالة من الدهشة. وعندما بدأت الطيور تعود إلى أعشاشها، كنت ما زلت جالسًا على جذع شجرة، أجتر المرارة الجافة التي كانت تتسرب أسفل حلقي. لم أستطع التعرف على نفسي. لقد غزتني تلك المرأة بواسطة قوى غيابها الساحقة. فهواء الربيع المشرق، والعدد اللا نهائي من النجوم اللامعة، بدت وكأنها تخترق صدري بشكل مباشر بضوئها، مما ولّد بداخلي شعورًا مريضًا بالشوق الجامح إليها. هذا التدفق الحيوي لينابيع الشوق، ذلك الصوت الباعث للحياة الذي اعتاد على تحريك وملء عضلاتي بالطاقة المبهجة، ألقى بي الآن في آتون سبات مخدِّر، وتصلُّب عقيم، كل ما كنت قادرًا على القيام به هو التحديق في كل ما هو أمامي، دون ملاحظة أي شيء، أو رؤية أي شيء.

وتمامًا، كما مُحيت تلك المناظر الطبيعة - التي كنت معتادًا على تتبع أصغر تفاصيلها - مُحيت من أمامي الآن، وذلك الفضاء الموجود في رأسي كان فارغًا إلا من فكرة واحدة - هذا إن كان من الصواب أن يُطلق عليها اسم فكرة - تكرر نفسها برتابة: يجب أن أراها مرة أخرى! يجب أن أراها مرة أخرى!

في الفجر، في الوقت نفسه الذي كانت تستعد فيه الطيور لمغادرة أعشاشها، انطلقت نحو القصر. الملك، تلك الروح المسكينة، كان يعاني من مشكلات في قلبه والدواء الذي أخذه أرسله في غيبوبة طويلة. وعلى الرغم من أنني تمنيت أن يحدث له شيء كهذا، إلا إنني لم أجرؤ على الأمل في أن أجدها مستيقظة. لكنها كانت كذلك. رأيتها تجلس القرفصاء في البلكون مرتدية بدلة رياضية زرقاء وقد فردت يديها أمامها وكأنها تستعد لدعك الأرضية المصنوعة من الرخام اللامع بخرقة. ثم قامت بفرد ركبتيها، وبلا مجهود، رفعت جسدها الجميل وقدميها عن الأرض وظلت واقفة على يديها بعنق ثابت ومفرودة وذقنها المدببة مدفوعة للأمام. بدت وكأنها جرادة عملاقة (ولكنها بالطبع أكثر جاذبية من ماركيز «سانت باسماك» والذي سأتحدث عنه لاحقًا) تلك الوضعية، كما علمت، كانت في الحقيقة تُسمى وضعية «غراب العقعق». كانت تشبه ذلك الطائر، خصوصًا في الطريقة التي تتمدد بها أصابعها مثل المخالب، وظهر يديها المليئة بشباك من الأوردة المنتفخة.

بقيت في تلك الوضعية المستحيلة لمدة دقيقة قبل أن تعيد جسدها مرة أخرى للأرض وترقد على معدتها. ثم عادت مرة أخر لتفرد وترفع أولاً رأسها ووجهها المشرق ثم تلته بالجزء العلوي من جسدها حتى كونت زاوية مستقيمة بين الجزء العلوي من جسدها وساقيها. وفجأة، تم الكشف عن صف كامل من الأسنان الرائعة البيضاء في فكها السفلي وهمسة غير متوقعة فلتت من بين أسنانها محدثة هذا الصوت «سسسسسس».

استمرت على هذه الوضعية حتى أنزلت الجزء العلوي من جسدها ورأسها بتأنٍ وتوقفت عندما لمس جسدها الأرض لترقد مرة أخرى على معدتها لتستريح. حركات الزواحف التي أدتها جعلتها أشبه ما تكون بالأفعى أو الحية. استمرت في ممارسة تدريباتها البدنية وعيناها مغلقتان، ولكن الطريقة التي عرضت بها كل تفاصيل جسدها المثالي الفتَّان - وكأنها على المسرح - أقنعتني بأنها كانت تعلم بأنني موجود في مكان بالقرب منها، وأنها كانت تسخر بصمت من دهشة ذلك الأبله فاغر الفاه. فتحت جفونها المغلقة، رقدت العشيقة مستيقظة. وبدون النظر إلي، تركت فيّ أثر مروِّع. لقد استعبدتني بنظراتها منذ البداية وكل ما عليها أن تفعله الآن هو أن تجذب الخيوط.

بعد ذلك، عندما توطدت علاقتي بها أكثر، عرفتُ أن تلك الحركات التي تقوم بها ما هي إلا بعض طقوس رياضة «اليوجا» الصباحية المعتادة: وأن الأوضاع التي كانت تتخذها أو ما يُسمى بـ«أسانا» في اليوجا، هو اختصار لأسماء عدد من الحيوانات: الأسد، والهر، والحمام، والطاووس، والسلاحفة، والضفدع والسمكة. لقد استخدمتهم جميعًا في ممارسة أحد ألعابها معي. فعلى سبيل المثال تقوم باتخاذ واحدة من تلك الوضعيات المستحيلة وتبقى فيها وتطلب مني أن أتعرف على اسم الحيوان الذي تقلِّده؟ كان من الممكن أن أسعد بهذه اللعبة لو كانت تتصرف كطفلة في هذه اللعبة الطفولية، ولكنها كانت تحب أن تعذبني. «إن استطعت التخمين، ستحصل عليّ وإن لم تستطع، فلا أريد أن أراك لمدة لا تقل عن ثلاثة أيام». لقد كانت ذكية وماكرة.

عندما اصطحبت «سنووايت» إلى الغابة بدعوى أنني سأقوم بتنفيذ ما أمرت به الملكة، طار فستانها حول ركبتيها لأنها كان معروفًا عنها التحرك بخطوات سريعة. ولأنها كانت مليئة بالبراءة، فكانت تنحني تحت كل أجمة، لكي ترى كل زهرة، وتنصت لأغاني الطيور وتطرح الأسئلة بالطريقة نفسها التي اعتادت عليها.

- هل رأيتها وهي تقفز حولنا؟ هل هذا هو «العندليب»؟ انظر إلى ذلك العش الكبير الذي بناه طائر «العندليب»! ها هو زوجها، قد أتى لها بالديدان.

كانت «سنووايت» تبلغ من العمر خمسة عشر عامًا وقد تحولت من تلك الفتاة الصغيرة الحالمة ذات الشفاه الممتلئة إلى جمال حقيقي، ولكنها بقيت حالمة وساذجة كما كانت من الداخل. ولكن، من الخارج كانت مكتملة النضج بكل منحنياتها الموجودة في موضعها الصحيح. أنا أتذكر أنني بدأت أتساءل ما هي المدة التي قضيتها وأنا تحت سيطرة الملكة، وإلى أي مدى جعلتني أطيع أوامرها لمجرد التمتع بلحظة من رحمتها في المقابل. منذ متى وهي تستغلني وتستعملني، ولكن كل شيء على وشك التغيّر الآن!

بدأت في تنفيذ خطتي سلفًا. كان أصعب ما فيها هو التظاهر بأنني سوف أترك «سنووايت»، وحيدة بالغابة. لقد تمزَّق قلبي من شدة الألم عندما اضطررت لتجاهل توسلاتها بعدم تركها بلا حول ولا قوة بين وحوش الليل، على الرغم من أنني في الحقيقة قمت بترتيب كل شيء لها؛ فقد قمت بالدفع لهؤلاء الأقزام السبعة لكي يتقبلوا «سنووايت» في كوخهم ولكي يرعوها.

قمت بعمل ترتيباتي مع «دوك» وإخوته الذين يشبهون العرائس. لقد عملت مع الأقزام لسنوات. إذا ما وضعنا عملهم في التعدين على جانب، كانت لديهم طرق ووسائل أخرى متعددة للحصول على المال،

إلا إنهم كانوا يشتكون باستمرار من أنهم يكدون ويكدحون بحثا عن لقمة العيش. لكنهم في حقيقة الأمر منافقين صغار وماكرين، يكدسون ما يكسبونه من أموال في البنوك الأجنبية شهر وراء شهر.

تضمَّن عملي مع هؤلاء الأقزام الاتجار في نوع معين من «المشروم» الذي كان ينمو في أماكن في أعماق الغابة. لأنه كان أغلى وأكثر قوة وفاعلية من «الكمأ» و»دوك» و»جرامبي» والآخرين قد كلفوني الكثير من الأموال مقابل الخدمات التي قدموها لي. ولكنني لم أكن قط أبلهًا وساذجًا، لقد بعت هذا «المشروم» متظاهرًا بالثقة، لأثرياء الحاشية المسنين، وللدوقات خائري القوى والأمراء مرتدي الشعر المستعار الذين هم على استعداد لدفع أية مبالغ من المال مقابل استعادة قدراتهم الجنسية.

ما كان لي أن أتحصل على هذا القدر من الأموال التي حصلت عليها من وراء إشباع الرغبات السخيفة لأولئك المسنين وولعهم بأن يصبحوا قادرين جنسيًا مثل الكباش في شيخوختهم المبكرة عن طريق بيع بودرة وحيد القرن! أفضل عملائي كان مستشار الملك، الماركيز «سانت بازاماك» سالف الذكر، هذا الغندور المسن الذي يبلغ من العمر ٧٥ عامًا.

والذي كان يمشي بالنميمة بين الناس باستمرار. عندما كان الملك لا يزال على قيد الحياة، كان ذلك الرجل الحقير قد ورَّط نفسه في فضائح أخلاقية ودعابات جنسية مع الخادمات الصغيرات لكي يتفاخر أمام الناس بأنه قد نجح في انتزاع عذريتهن. (أمَّا الفتيات، فقد كن معتادات على تلك العواطف المنحرفة وقاموا بتأدية الدور الخاص بالبريئات المخدوعات بمنتهى البراعة مستخدمات في ذلك دموعهن الخادعة ودم الحمل الذي لطخن به أفخاذهن!).

كان الماركيز «بازاماك» هو المنظم الرئيسي لحفلات الرقص التي كانت تقام في القصر. كان رجال البلاط وزوجاتهم يحضرون تلك الحفلات. كانت الزوجات يغطين وجوههن بالبودرة ويرتدين ملابس السهرة المبهرجة. يستمر الجميع في الحضور إلى الساحة المركزية تقريبًا كل ليلة، ويستمر صدى الحفلات الموسيقية الراقصة حتى مطلع الفجر.

هذا الخليع العجوز لم يكن يحتمل رؤيتي ولكنه كان يدفع لي بسخاء مقابل الحصول على «المشروم». وقد اعتدت ادخار هذه النقود من أجل شراء البنادق الجديدة، ولكن بمجرد وقوعي تحت تأثير الملكة، حتى بدأت في إنفاق كل ما أمتلك على شراء الهدايا لها.

فأنا شخص لم يفكر في حياته قط في الذهاب إلى التسوق. ولكنني أصبحت الآن أضيع كل أمسياتي في البحث داخل محلات تحمل أسماء الماركات التجارية العالمية مثل «كافالي»، و»أونجارو»، و»ماكس مارا»، و»دولتشى & جبانا» ويسيطر علي خوف مستمر من كوني غير قادر على إيجاد القطعة المناسبة بين كل تلك الدمى التي تعرض صنوف من الملابس والرفوف المكدسة.

في بعض الأحيان أجدها تكتب شيئًا ما على قطعة صغيرة من الورق: «بدلة ذات جاكيت ضيق وجيبة فوق الركبة تمامًا، تنتهي بشكل غير متوقع بكشكشة في مكان ما فوق الحذاء المرتفع»، أو «جاكت صوف ذو تطريز ذهبي وحُلي محلية الصنع لكي تتماشى مع التنورة ذات طبعة الفهد والمطرزة بدانتيل ذي لون فاتح».

من الذي يستطيع أن يفهم تلك الألغاز؟ ليس أنا، بالتأكيد. لقد تعثرت، وعُذبت وأحبطت في هذا العالم الغني، والمنظم والأجنبي للموضة. وأصيبت معدتي بالتقلصات تحت وطأة هذا الضغط النفسي لخوفي من أنني قد أقوم بالاختيار الخاطئ. وعلى الرغم من كل ذلك، فهي لم تشعر أبدًا بالرضا على أي شيء قمت به.

في السنين القليلة الماضية، قررت استئناف ممارسة عادة ادخار الأموال، ولم أكن أعرف حينها السبب، ولكنني بدأت في ادخار بعض الأموال وبعد فترة قصيرة، استطعت ادخار قدر محترم من الأموال. كان كافيًا كي أدفع للأقزام السبعة الصغار من أجل الاعتناء بـ«سنووايت»، لقد كنت محظوظًا على الرغم من أنني لم أتوقع يومًا أن تفكر الملكة في القيام بشيء كهذا.

فهوسها بالمرآة السحرية! التي كانت تقضي أمامها وقتًا أكثر مما قضته وتقضيه مع كل الملوك، الصيادين والرجال الآخرين في هذا العالم. فأمام المرآة كانت تجد صورتها الحقيقية. تجد نسخة مكررة منها على الجانب الأخر وكأن صورتها المنعكسة في المرآة هي «بورتريه» جديد لها يُرسم كل صباح. كانت المرآة هي الشيء الوحيد الذي كانت تطيعه دون اعتراض.

في بعض المناسبات، كانت تتقبل النصائح التي كانت تُهمس في أذنيها من قبل «ماركيز دو سانت بازماك» الخليع الفاسق، والتي تتعلق عادة بإقامة بعض الحفلات الراقصة الفخمة، أو في كيفية إفراغ الخزينة الملكية من الأموال، أو زيادة الضرائب على الناس. وعلى الرغم من ذلك، فهو نفسه لم يسلم من الإهانة والإذلال، وإذا به يتلوى مثل حشرة مدهوسة (كان يشبه الجرادة بأي حال من الأحوال) أمام نبرة صوتها المرتفعة القاتلة.

أمام المرآة، على الرغم من ذلك، التي أحضرتها للقصر في حراسة خاصة داخل عربة مختومة بالرصاص. كانت تتصرف كما لو أنها تقف أمام معبودتها الخاصة. كانت تؤمن بكل شيء تخبرها به. كان الصباح الذي أخبرتها فيه بصوتها العليم أن «سنووايت» أجمل منها هو أسوأ صباح في حياتها. والأسوأ منه عندما أخبرتها بأن «سنووايت» ما زالت على قيد الحياة.

كان ذلك الثعبان الخرف «سانت بازماك» هو الذي أخبر الملكة بمكان اختفاء «سنووايت». لا بد أن الأقزام السبعة الملاعين هم من أخبروه عنها مقابل الحصول على رشوة ضخمة. لم تقل لي شيئًا، ولكنها حوَّلت نفسها في السر إلى ساحرة شريرة عجوز كثيرة التجاعيد.

مجرد التفكير في هيئتها أرعبني وأصابني بالقشعريرة، على الرغم من كوني معتادًا على كل أنواع الرعب! وبخطوات صغيرة وبطيئة (خطوات الشيخوخة!) انطلقت نحو الكوخ الذي تختبئ فيه «سنووايت» وسمَمَتها. (أخبرها «سانت بازماك» بالمكان والساعة التي تكون الفتاة موجودة في الكوخ وحدها بواسطة). أرسلت في طلبي بعد عودتها إلى القصر.

- تفضل بالدخول! أرجوك، تفضَّل بالدخل. لقد كان الباب دومًا مفتوحًا لك حتى الآن. ما عدا الأوقات التي كنت تؤدي فيها حركات الـ«أسانا» بشكل خاطئ.. وحتى حينها، كنت أعاقبك لثلاثة أيام فقط.

تمكنت من سماع نبرة غاضبة مختبئة وراء صوتها الهادئ. أكملت قائلة:

- أمَّا الآن، فلن أسامحك مرة أخرى.

وبالنبرة الباردة المهددة نفسها، أعلنت أن «سنووايت» قد ماتت وأنني بالنسبة لها في عداد الموتى أيضًا، وأنها لا تريد أن تراني في سريرها مرة ثانية، ولا تريد أن تراني في قصرها، ولا في مملكتها. ولكي أنقل لكم ما قالته صراحة، قالت لي وهي تأمر الحراس باصطحابي حتى حدود المملكة:

- بعض الأشياء لا يمكن أن تتم إلا بالقوة.

خلال ساعتين فقط، هويت من مكانتي كعشيق الملكة والصيَّاد الملكي إلى المنفي المشرد. كما أنها انتزعت مني الشيء الوحيد الذي لا يمكنني أن أعيش دونه. انتزعت مني الغابة!

على الرغم من كل هذا، وعلى الرغم من الكتلة التي نمت وتثاقلت داخل صدري، عليّ أن أعترف بأنني خرجت من تلك التجربة بمتعة واحدة فقط. لقد أنقذت «سنووايت» وفقًا لخطة وضعتها بنفسي معتمدًا على معرفتي الجيدة بالملكة وبمستشاريها الحقراء مثل «المرآة» و«سانت بازماك». خفتُ من أنها قد تكتشف يومًا أن الفتاة ما زالت على قيد الحياة. ولكي أكون في الأمان ولكي أستطيع أن أحمي «سنووايت» من كل خطر محتمل، أعطيت «دوك» وزمرته قارورة تحتوي على ترياق جبَّار.

كنت قد أعددته وفقًا لوصفة بعض الصيادين القدامى والتي لن أستطيع الكشف عن مكوناتها بالطبع، ولكن ومن أجل توثيق اللحظة، سوف أفصح عن القليل منها: البشرة الرقيقة لقنفذ البحر، وسمكة من ذوات الأربع أقدام، وأقراص عسل النحل البري، ومريء حلزون الحديقة، ومنقار طائر الحجل، وغيرها الكثير. مزجت المكونات بكميات ونسب دقيقة، ثم طحنتهم جميعًا، وحفظتهم في مكان بارد لمدة ٣٣ يومًا. إن تم صنع المزيج بالصورة الصحيحة، سيكون الترياق فعالًا بلا شك. لكن هناك أثرًا جانبيًا، وهو وأن المريض سوف يدخل في حالة من السبات العميق المصحوبة ببطء شديد في التنفس. نوم عميق لن يستطيع المريض الاستيقاظ منه إلا إذا قبَّله أحد مغرم ومتيم به من الجنس الآخر.

لم أترك هذا الأمر أيضًا للصدفة، ولكنني تأكدت من أن صديق «سنووايت»، ربما مصطلح صديق ليس هو المصطلح المناسب لهذا الشاب الذي يبدو مظهره بصورة ما غير عادي ولكن مكانته لا غبار عليها. فهو أمير من مملكة «دراكوليا». وشغفه بها كان باديًا (كنت قادرًا على ملاحظته من واقع خبرتي) والفتيات مثلها يحببن الفتيان الذين يجمع مظهرهم بين الأضداد.

جمعت نظرة الأمير الثابتة بين اللا مبالاة المزعجة ونوع من السخرية - أرجِّح أن هذا نابع من التاريخ الأسود لعائلته - وعندما تعمَّد الابتسام بأسلوبه الساخر رافعًا جانبي شفتيه، ظهر طرفي نابيه واللذان كانا أطول من الطبيعي. كنت واثقًا من أن قصة أميرة جميلة نائمة داخل تابوت زجاجي ستثير اهتمامه.

أتى الترياق بالنتيجة التي توقعتها تمامًا. غرقت «سنووايت» في سبات عميق، وكان تنفسها تقريبًا غير ملحوظ (كما هو الحالة في رياضة «اليوجا» التي كانت تمارسها الملكة لكي توقف الشيخوخة من الوصول لخلاياها). كانت كالنبات - أكثر النباتات روعة - لا تتحرك ولكنها حية. ظلت عيناها مغمضتين بغض النظر عن تتابع الليل والنهار وتغيرات الضوء والظلام. وهؤلاء الصغار قامو بدورهم في النحيب والبكاء بطريقة مقنعة للغاية، لأنني دفعت لهم آخر قطعة نقود كنت قد ادخرتها (كلما كان الرجل قصيرًا، كلما كان تمثيله أفضل).

جثوا على ركبهم حول الكفن وانخرطوا في البكاء وقبعاتهم في أيديهم، مما أبرز صلعاتهم وجعل المشهد أكثر تأثيرًا. أصبح قبر «سنووايت» أيقونة جمال وقبلة المعجبين. الحجاج الفضوليين، والمغامرين، والعاطفيين الوافدين من كل أرجاء الأرض. وفي صباح يوم ما، ظهر من بين الجموع، فارس يعتلي صهوة جواده الأبيض وتعلو جبهته نجمة سوداء، مرتديًا معطفًا طويلًا بشكل غير معتاد يطير خلفه والذي كان مناسبًا له بشكل رائع.

انحنى فوق الفتاة النائمة. كل شيء حولهما بدا وكأنه من صنع البشر: أشجار البرقوق المزهرة، الفراشات بألوانها المتعددة تطارد بعضها البعض، وعنكبوت قد نسج شبكته بين زنبقتين. وبعدها قام بتقبيلها. لم أكن أقف في الصف الأول للمشاهدين لذا لا أستطيع أن أصف مشهد التقبيل بالتفصيل بسبب جموع الرؤوس المتمايلة الموجودة أمامي، ولكنني عرفت أن «سنووايت»، على الرغم من أنها كانت مندهشة، قامت بالتأقلم وعدلت من وضعيتها لتتناسب مع الموقف الجديد بسرعة كبيرة فطالت القبلة.

رأيت «سنووايت» مرة أو مرتين في السنة منذ تلك الحادثة، كانت تبدو شاحبة بعض الشيء عندما رأيتها آخر مرة (كانت دومًا تعاني من الأنيميا. أصبح اسمها ينطبق تمامًا على مظهرها) سألتها إذا ما كانت سعيدة؟ وأجابتني: «نوعًا ما». لستُ أدري السبب، لكن شفتاها التوتا بطريقة ما وهي تتحدث. كما يقولون، السعادة الكبيرة يجب أن تحتوي على قطرة من المرارة.

بالنسبة للملكة، فقد تحملت أسوأ ما يكون منها. قالت لي قبل أن تقوم طردي شر طردة بدون حتى أن يطرف لها جفن:

- لا يمكن إجبار الأشياء لكي تكون جميلة.

كرست كل حياتي لإمتاعها وإسعادها. لقد أحببتها حبًا لا يحتمله الجسد ويعذب الروح. وكيف ردت إلي الجميل أو المعروف؟ كانت تسخر مني من وراء ظهري مع الخادمات أو الوصيفات، هؤلاء اللزجات والخليعات المتملقات. أنا أعلم أنها كانت تقارنني بالأقزام الفلاحين، وبالجلف، وبالوسخ الموجود تحت الأظافر، ووصيفاتها تضحكن بصوت عال ومتكلف.

كنَّ مجرد نساء، تدَّعين بأنهن من الطبقة الراقية أمامها:

- كيف حالك؟ لم أرَك هنا في زيارة لعشيقتك منذ وقت طويل؟

كنَّ يختلنّ ويتبخترنّ بأثدائهن ومؤخراتهم في الردهات. أعلم أن «سانت بازماك» كان يثرثر ويمشي بالنميمة علي داعيًا إيّاي بـ»المتوحش القادم من الغابة»، وأنها عندما طردتني، تفاخر بأنه كان له الدور الأساسي والفعال في التأكد من «أن هذا الإنسان البدائي» لم يعد موجودًا بينهم.

ولكن ضحكاته الساخرة السمجة لم تستمر لوقت طويل. فضحكته تلك وقفت في حلقه عندما طردته شر طرده بسبب تورطه في مؤامرات داخل البلاط الملكي، ونفته إلى أبعد الأديرة. (يمكنني أن أتخيله في غرفة الرهبنة، وهو غارق في عرقه ويستمع لعواء ذئاب الجبل).

ولكنني لن أترك الأمر يمر هكذا، ما الذي تعتقده؟ هل ستنجو بفعلتها بعد كل ما فعلته معي؟ حسنًا، لن تنجو! أصدقائي الحقيقيون القلائل، وهم أيضًا صيادون، كانوا يمتدحونني لقصصي التي كنت أرويها بجوار النار في الغابة. كانوا يقولون إنها أفضل قصص سمعوها في حياتهم. لا بد أنك سمعت كيف يسخر منا الناس بسبب قصصنا، بكل ما تحمله من مبالغات وكذب، ولكنهم يستمعون إليهم في كل مرة بالشغف نفسه.

حسنًا، لقد قررت الآن. سوف أخبركم بحقيقتها بكل ما تحملها من تفاصيل مرعبة فاضحة. كما نقول نحن الصيادين، الحظ يحالف هؤلاء الذين ينتظرون لوقت أطول. سوف أغزل قصة عنها، ولكن هي ليست قصة عن أنثى، لكن عن ملكة جميلة ومتكبرة كان لديها صياد غبي نجحت في أن تلفه حول أصبعها، ولكن عن زوجة أب مرعوبة من أن تصبح عجوز وابنة زوجها،»سنووايت» ذات الجمال الناشئ كالبرعم الأخضر بوجه أبيض كالثلج. وشفتين حمراوين كالدم وشعر أسود كشجر الأبانوس.

الفتاة تزداد جمالًا في كل لحظة. سوف أروي قصة عن ملكة غيورة وشريرة لا يمكنها أن تقبل حتى أصغر التجاعيد في وجهها والتي ما إن رأتها في المرآة، حتى أخذت تستحم في حليب أنثى الفرس وتغطي جسدها بالأعشاب النادرة والباهظة الثمن التي يتم استيرادها من الشرق الأقصى بينما الفقر والبطالة يجتاحان مملكتها. وبدافع الشر والحقد، دفعت هذه المرأة أعظم ثمن يمكن للمرأة أن تدفعه وحولت نفسها إلى ساحرة شريرة عجوز لكي تخدع «سنووايت» حتى تقضم قطعة من تفاحتها المسمومة. تلك المرأة التي تعي جيدًا مدى ولعي وهيامي بها وحاولت أن تستغلني كي أصبح قاتلًا لفتاة صغيرة! لقد تصورت أنني التقيت لأول مرة في حياتي بالمرأة التي يمكنني أن أتحدث عن أحلامي معها، ويمكنها أن تفهمها على أنها واقع سيتحقق يومًا. وهي التي وقع عليها اختياري، معشوقتي، هي نفسها معذبتي.

وعلى الرغم من كل شيء، فإنني تعلمت شيئًا واحدًا، وهو أن أكثر الرجال ثقة في النفس يمكنه أن يصبح بلا حول ولا قوة وأن يصبح ضعيفًا، ويتحول من صياد إلى ضحية. وبالتدريج، يبدأ «سيد الموقف سابقًا» بالشعور برعب وذعر للفريسة المطاردة الذي اعتاد اعتباره جزءًا معتادًا من اللعبة.

كان قلبه يخفق ككرة ضخمة مجنونة تم ركلها بواسطة الخوف في غرفة ضيقة بلا مخرج، ودون نافذة حتى، ولا يوجد شيء بها سوى صوت ضربات قلبه المجنونة. لدى الصيادين حكمة تقول:

«فلتظل حيًا ما دمت تتمتع بصحة جيدة. كن صلبًا وصامدًا في وجه كل علل البشر الصغيرة ومواطن ضعف الجسد والروح، لأنك صياد!». كنتُ صيادًا، ورحالًا. ولدت لكي أطوف الغابات وأبقى بالخارج تحت سماء الليل. أنا لم أُخلق لحياة القصور وحفلات الرقص. لماذا تغيرت بشدة هكذا؟ في الماضي، استطاع الجميع أن يروا كيف كنت أشعر؟ كانوا فقط بحاجة لينظروا إلى وجهي ليعرفوا طبيعة شعوري. أمَّا الآن، فبفضلها، تعلمت كيف أدَّعي وأتظاهر، وكيف أخبئ أكثر نواياي خبثًا خلف ابتسامتي. كنت سجينًا داخل نفسي، وضحية لعجزي.

شعرتُ بأنني أموت، وأن لا شيء يهم، ولكن هذا اليأس والقنوط جعلاني أكثر مرونة وأقل ارتيابًا. يجب علي أن أكمل رحلتي عبر الليل دون أن أتوه!

وهكذا بعيدًا عن مشاعر الحقد والضغينة والرغبة في الانتقام، سوف أحكي القصة. الفائدة الوحيدة التي عادت علي من وراء استخفافها بي هو أنني تعلمت كيف أقرأ وأكتب. كانت تدعوني بـ»الريفي الجلف»، و»حيوان مدرب لا يصلح سوى لشيء واحد: أن أمنحها المتعة في الفراش». ولكن، رغبتي السرية لكي أجعلها تحبني وأمنحها السعادة قادتني إلى تعلم الحروف. بالألم والصبر تعلمتهم. أردت أن أريها إنجازاتي، فكتبت لها خطابًا.

هكذا كتبت: «حبي الوحيد! أقسم لكي أنني سوف أحبك لبقية حياتي. سأحبكِ أكثر من الصيد وأكثر من الغابة. أنا لست بحاجة لأي شيء سوى حضنك، وأن أشعر بحضنك الذي يضع قلبك في مواجهة قلبي. هذه ستكون أعظم حرياتي». وهكذا دواليك على المنوال نفسه. يا له من شيء عظيم. ردت على باحتقار، ودون أن تبدي أي تقدير لمجهوداتي: «إن كنت تعتقد أن كونك قد أصبحت متعلمًا – بالكاد – يعني بأنك قد أصبحت أكثر ذكاءً، فهذا يعني بأنك موهوم. وكونك تتعطف وتتنازل وتقارنني بغابتك، فيمكنك أن تستمر في مقارنة نفسك بجذع الشجرة، لكن ذلك الجذع سيظل دومًا جذعًا مهما حدث».

هذه واحدة من إهانتها المعتادة، والتي بقدر ما هي جارحة، إلا أنني كنت أتناساها لأن حبي لها كان أقوى من ذاكرتي. ولكن الآن عندما تعود إلي ذكرى تلك الإهانات، أتذكر رائحة الروث الطازج، وأشعر بالغثيان من مجرد التفكير فيما فعلته تلك المرآة بي. هذه الملكة التي تبدو ظاهريًا وقورة ومعتدلة. وهي في الحقيقة كانت تتلوى مثل العاهرات في السرير.

كانت ذات طبيعة استبدادية لا تستطيع أن تقاوم رغبتها في طلب المزيد من عبدها. فكما يقول المثل، عندما تُصاب الذئاب بداء الكلب فإنها تموت. لكن، عندما تُصاب به الثعالب، فإنها تبقى على قيد الحياة دون أية عواقب وخيمة. لقد التهمتُها بعينَي مثل الذئب، وأصبحتُ مريضًا بداء الكلب في الحب، وهي، الثعلبة، لم تكن تحتاج سوى أن تهز ذيلها لي فأفقد صوابي وأتبعها أينما أرادت دون تفكير. لقد أصابتني بجنون وارتباك داء الكلب. ما كانت لتتردد في تركي لأسقط صريعًا دون أدنى شعور بالندم. ولكنني بقيت رغم كل ذلك على قيد الحياة. في النهاية هناك دومًا وميض من الضوء في نهاية النفق. بعد فترة، ربما بعد مرور عدة شهور، تم استعادة رغبتي السابقة في ممارسة الصيد. في صباح يوم ما - كل الأشياء الجديدة تبدأ في الصباح – علَّقت بندقيتي على كتفي وانتقلتُ إلى الغابة. ليس كصياد ملكي ولكن كصياد مخالف يصطاد دون تصريح. كانت سعادتي لا تُوصف؛ لأنني كنت أقوم بعمل أكثر شيء أحبه، الفارق هو أنه أصبح الآن غير مرخص وغير شرعي. وعلى الرغم من أنه يبدو ظاهريًا أنني قد نسيت كيف أقوم بعملي – كنت أخرق وفقدت هدفي أكثر من مرة - لكنني ما لبثت أن استعدت مهارتي بالتدريج. وبحلول الظلام كنت قد قتلت أرنبين بريين، واثنين من طائر «الحجل» وخنزيرًا بريًا سمين. أصبته إصابة مباشرة بين عينيه فسقط كجذع شجرة.

عطر الغابة، ورائحة البارود. وحتمية الموت. كم هم هي مثيرة كلها!

القصة الثامنة

"نيـــ□رلاند"

«يجب ألا تروى أحداث هذه القصة الخيالية عند طبيب الأسنان أثناء انتظارك لكي يتم فحص طقم أسنانك».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

قال العالم العظيم «شيشرون»: «لا يمكننا تغيير الماضي!». فلماذا إذًا تسيطر على البشر تلك الحاجة الملحة لبعث الماضي من جديد؟ هل هو الهروب من الواقع؟ والمقصود بـ»الهروب من الواقع» هنا هو محاولة الهروب من المشكلات الآنية. تبدو هذه الإجابة أبسط الإجابات على هؤلاء الذين يعيدون - لعدد لا نهائي من المرات - رواية أحداث الماضي الخاصة بهم بطريقة منمقة. مما دعا إلى الحاجة لحفظ التوازن بين ما كنا عليه في الماضي وما أصبحنا عليه الآن في تلك الحكايات المكررة والمعدلة التي تسرد فترة شبابنا. ففي تلك الحياة، جميعنا نحدد ما نريد الاحتفاظ به وما نريد التخلص منه. في كل الأوقات، وفي كل دقيقة تمر، يموت جزء منا، والعجيب في الأمر أننا نتصرف وكأننا مخلدون حتى عند حضورنا لجنازات أحد أقاربنا. وعلى الرغم من كل شيء، فنحن نعكف على بناء تواريخنا الذاتية كما لو كان كل واحد منا «قيصر» أو «جاليليو». ونبذل جهودًا مضنية بلا مغزى كي نخلد ذكرانا على الرغم من أننا نعلم جيدًا أننا سنضطر يومًا للرحيل.

لكن، على الجانب الأخر، أليس من الإنساني أن نؤمن بأهميتنا في الحياة حتى عندما نكون في قمة تفاهتنا. على الأقل كي نرفع مستوى ثقتنا بأنفسنا وبفكرة أننا أروع وأكمل ما صنع خالقنا؟ بمرور الوقت، يزول تضخم الذات هذا الذي نعاني منه بكل تأكيد، على الرغم من أنني ما زلت أرى بعض أقراني وهم يقنعون أنفسهم بأنهم أبطال صغار. أبطال بعكازات، ها... ما عدا هو، يبقى الوحيد الذي هوب، هوب، هوب، يقفز ويطير ويحتمل، ذكي وغير مسؤول دائمًا، وإلى الأبد! ما الذي يمكنني أن أقوله، وقد تركت هاتين الحياتين المختلفتين وراء ظهري؟ وأجلس الآن على مقعد في «متنزه كينسينجتون»، وأنا في خريف العمر، والحمام من حولي ينقر فتات الخبز الذي أحضره له كل أسبوع.

كل ينال نصيبه. فهناك بعض أوراق الأشجار التي تتحول إلى اللون الأصفر وتسقط في شهر أغسطس، فيما يحتفظ البعض الآخر بأوراقه حتى حلول الخريف. أنا لست مثل هؤلاء الناس الذين تمرسوا على تراكم قوى حياتهم وجاذبيتهم عندما كانوا صغارًا وبعد ذلك تركوا الشيخوخة تدهسهم بلا مقاومة. لا شك في أن الحكيم «هوراس» قد التقط الفكرة بشكل جيد عندما قال: «هناك معيار لكل الأشياء وفي النهاية هناك حدود معينة يخضع لها الجميع».

متمسكون بها تمسك المحاربين القدماء المنعزلين بما تبقى من جدائل شعورهم عندما كان كثيفًا. تراهم وهم يسيرون في طرقات المتنزه، مرتدين ملابسهم بمنتهى الأناقة ومحتفظين ببعض التفاصيل اللافتة للنظر كأنهم يسيرون في عرض ما. على سبيل المثال، وضع منديل أبيض حريري في الجيب

العلوي من سترتهم الطويلة المشقوقة من عند الذيل، الأمر الذي ربما يهدف إلى إبراز رغبتهم في الهروب من روتين الحياة العائلية اليومية الممل. لكنهم صاروا الآن مسنين ومتعالين بدرجة تمنعهم من اللجوء إلى إحدى الحانات المملوءة بالدخان. يمشون بخيلاء كما لو كانوا في طابور عرض عسكري عبر طرقات المنتزه محتفظين بلطفهم وحلاوة معشرهم التي يتسمون بها ومستقيمين في مشيتهم قدر المستطاع. لدرجة لو أن وابل من الأمطار قد انهمر عليهم فجأة، وغمرهم بالكامل في غضون دقائق كما لو كانوا قد غمسوا في نهر «التايمز»، سترى هؤلاء المتفاخرين إلى الأبد يفتحون مظلاتهم بأناة وبسرور. يشبهون في سلوكهم هذا بعض الأشجار التي تبدو وحيدة ومنعزلة عن قصد. غريبو الأطوار هؤلاء، الذين يشبهون جزرنا البريطانية في وقفتها وحدها في وجه الريح والأمطار. سوف يظلون متفاخرين هكذا حتى ولو تم اقتلاعهم من جذورهم بعد أن أصبحت مشوهة، أتم سحب جذوعهم إلى مخازن بعض أباطرة صناعة الأثاث أو تم بيعها في سوق جذوع الأشجار الهزيلة. بجانب هذين النوعين من الأشجار هناك نوع ثالث ثابت وراسخ في المنتزه، وهي تلك الأشجار التي تنشر أوراقها الذهبية ليس بالتدريج ولكن مرة واحدة، لتنثر هالة ذهبية ناعمة ورقيقة حول نفسها يُعجب بها من يراها من الأمهات والأطفال على حدٍ سواء وتراهم يركضون حول جذوعها ويغطون أنفسهم بالأوراق. ما هو نوع البشر الذي يشبه تلك الشجرة؟ في الحقيقة، الذين يشع منهم شيء ما، دون كذب أو ادعاء أو تظاهروا زيف أوكتمان: شيء اختبره الآخرون كقوة تؤثر عليهم عندما يقتربون منهم أو عندما يسمعونهم وهم يتحدثون.

إن ما تمنحنا إياه الطبيعة، لا يمكن لأحد أن يسلبه مننا. و»بيتر»؟ أي نوع من أنواع الشجر هو؟ بالطبع ليس ذلك النوع المتسلق! فهو مكتفٍ دومًا بذاته، أبدي، ولا يتلاشى أبدًا ولا يسقط ودائم الخضرة! نعم يبدو كشجرة دائمة الخضرة أوقف نموها اليابانيون بمهارة لكي تجعلهم صغار الحجم، وفي قمة الجمال وغير قابلين للتغيير. كشجرة» البونساى» دائمة الخضرة.

أنا أعلم جيدًا إلى أي مدى قد تصبح احتياجات المحيطين بنا في بعض الأحيان خانقة - أم يجب أن أقول مهدئة؟ - لفردية الشخص. لكن أليس من حق كل شخص بالغ أن يحتفظ بتفرده؟ «بيتر» لديه هذه المقدرة. أنا أوافق على ذلك – على الرغم من أنه لن يصبح أبدًا ناضجًا - وأنا أيضًا أمتلك هذه المقدرة. لكن، «بيتر» ربما يكون قادرًا أكثر مني على الرؤية لمسافة أبعد قليًلا ممَّا هو بادٍ.

لكنه بعد كل هذا، يستطيع أن يطير، وأن يظل صبيًا – فمن المعروف أن مشهد الأطفال الصغار الذين ليسوا بحاجة إلى نظارات طبية أفضل بكثير من منظر رجل في الستينيات. لكنني عدلت طبيعتي كي تتواءم مع أعراف المجتمع، وفكره ومنطقه. لكن ماذا عنه؟ فالتزامه الوحيد هو أن يُحمل بعيدًا كي يستطيع أن يطير حولنا وأن يمارس القليل من رياضة «الشيش» مع أحد القباطنة المفقودين. يجري هنا وهناك وكأنه يستمتع بالفعل بألعابه اللا نهائية والفتيات المساكين اللاتي ظل يغويهن لعقود. مدعيًا بأنه سوف يمنحهن حياة جديدة بالكامل بينما حياته لا تنتهي أبدًا. كن جميعًا مقتنعات بأنهن أميراته المفضلات بينما هو لا يريد منهن سوى الذكريات الممتعة لتلاعباته ومناوراته القديمة وحسب. هو - ودعنا نكون صرحاء - بلا قلب ولا رحمة. لكن من ذا الذي يمكنه أن يخبر الفتيات بهذا الأمر دون أن يشمئزوا منه لبقية حياتهم؟

كالعادة، كان المنتزه مليئًا بالأطفال والمربيات والكلاب، إلا أن لا أحد منهم تجرَّأ على مضايقة الحمام الخاص بي. كونهم كانوا بالفعل معتادين على مزاجي السيئ. ويفضِّلون مشاهدتنا أنا وطيوري من مسافة آمنة. كان الأطفال يحدِّقون صراحة فينا، أما الكلاب فكانت أكثر خجًلا، ولكنهم كانوا جميعًا خائفين مني كما لو كنت الغراب العجوز «سولومون كاو» الذي التقاه «بيتر» لأول مرة في هذا المتنزه عندما نجح في الطيران لأول مرة في حياته، رافضًا أن يكبر بعد ذلك. عندما تقابل الاثنان، شعر الغراب العجوز بالحزن «لبيتر» لأنه كان بين بين، فلا هو طائر مكتمل ولا هو ولد حقيقي، لكنه ساعده على تقبُّل ذلك قدر استطاعته، فهذا هو قدره. أما بالنسبة لطفل مثل «بيتر» لم يكن الأمر يمثل مشكلة على الإطلاق. فعندما وجدنا أنفسنا، نحن «الأطفال الصالة» في «نيفرلاند»، كان «بيتر» يتصرف بالفعل كحاكم مطلق له مطلق الحق في أن يحكم.

في النهاية، بدا كل شيء في «نيفرلاند» وكأنه سباق لا نهائي. كنا نُطارد من قبل القراصنة وهم كان يتم مطاردتهم من قبل الهنود، والهنود بدورهم يهربون من الوحوش الجائعة الذين كنا نرتدي جلودهم، مثل ثعبان «الأوروبوس» (الذي كان يعض ذيله). وعلى الرغم من أن الجزيرة لم تكن دائرية الشكل بل كانت مستطيلة بصورة غير منتظمة، ومليئة بالمنحدرات والبحيرات. كل فرد كان منا يراقب ويتابع الآخرين. وكل فرد منا كان إما مطارد أو ضحية أو كليهما معًا. لكن من ذا الذي يستطيع أن يغلق الدائرة وهي غير منتظمة؟ الإجابة: لا وجود لمثل هذا الشخص.

كان السباق في الواقع راكدًا، وعلى الرغم من أن أقدامنا كانت ساخنة ودماؤنا تنادي للقتال، لم نتمكن من أن نترك أنفسنا للتعب والإرهاق لأن المتتبعين المتعطشين للدماء ليسوا بحاجة سوى للقليل من الوقت لكي يمسكوا بنا.

في حكايات ما قبل النوم التي تحكيها الأمهات للأطفال، كما كانت تفعل زوجتي مع أبنائنا؛ ففي «نيفرلاند»، لا نهاية للأشياء الرائعة المبتكرة. على الرغم من أن أنا وبقية الأولاد المفقودين عشنا هناك لسنوات عديدة، ونعلم جيدًا إلى أي مدى كان البقاء هناك خطيرًا. كما يقولون، هناك العديد من الآراء ما دام هناك العديد من الرؤوس.

كان» بيتر» مختلفًا عن بقيتنا باعتباره قائدنا. فقد كان يتحتم علينا أن نرتدي ملابس ثقيلة، وخرقاء مصنوعة من فراء الدب بينما هو يرتدي حلة أنيقة مصنوعة من أوراق الشجر. كان «بيتر» جلفًا وخشنًا في كل ما كان يفعله سواء كان يمزح أو يهين أحدنا، كان يقول أشياءً مثل: «فلتطر يا صاحب الشعر المجعد! وأنتما، أيها التوأمان اللذان يشبهان الصفارات، ما الذي تنتظرانه؟». كان «بيتر» معتادًا على توجيه الأوامر لنا، ويضحك طوال الوقت بينما نحن عالقون مثل كرات الفرو العالقة بالأرض نتدحرج كلما وقعنا، نشعر بأننا مرغمون على السخرية من عجزنا. لكن كما قلت؛ كان «بيتر» مختلفًا في كل شيء: في نظراته، وفي سحره وجاذبيته، وفي ثقته بنفسه التي جعلته يقود فرقتنا الصغيرة.

لكنه حرَّم علينا أن نبدو مثله. لقد كان دومًا - كما أوضح «مايكل دارلينج» – يضعنا جميعًا في راحة يده. كان «مايكل» أصغرنا سنًا وأكثرنا سذاجة واستعدادًا لنسيان كل شيء أتى من العالم الخارجي.

لكن «مايكل» حتى الآن - وبعد مرور الكثير من العقود (ابنه البكر على وشك التخرج من جامعة «إيتون») - هو الذي ما زال يتذكر بسعادة مغامراتنا عنما كنا أطفالًا في «نيفرلاند».

أنا أعرف بعض الناس الذين يقولون إن «مايكل» هو مجرد شخص ثرثار يتحدث عن الأشياء التي لا يصح الحديث عنها، لكنني ما زلت مغرمًا بصحبته، وليس فقط بسبب علاقتنا الأسرية. «فمايكل» رجل يستطيع بسهولة أن يريحك من الجمود والخمول بنوادره وحكاياته.

فعقله يرغب دومًا في المخاطرة، وهو في هذا الصدد يشبه لحد ما «بيتر». على الرغم من أنه كشخص بعيد كل البعد عن أنانية «بيتر» الفاشية. فكلاهما مستحوذ عليه بواسطة أخلاقيات معينة والقدرة على معرفة كيف يجعلون أنفسهم محبوبين.

في حالة «بيتر»، تنبع تلك الموهبة من خيلاء يشبه خيلاء «نيرون»، بينما «مايكل» فيُعتبر فتى مهذب على الرغم من ثرثرته، ولم يكن يومًا شخصًا بذيئًا. ما يرعبني حقًا هو عدوانيته الخشنة، عدوانية تم تزويدها ولله الحمد في الإمبراطورية على يد ملكتنا وقوانينها المحبة للحقيقة (نصلي لكي يمنحها الرب حياة مديدة ومثمرة) المتفشية في «نيفرلاند». وهذا الأمر لأكون صريحًا، يعود إلى «بيتر».

يمر الوقت سريعًا في «نيفرلاند». العديد من التغيرات قد وقعت بالفعل، بعضها كان مبهجًا والبعض الآخر كان صعبًا، ولكن أعمارنا لم تتغير، ولا عقولنا، وكأننا قد نسينا كيف نكبر.

بعد ذلك، عندما أحضرونا إلى بيت عائلة «دارلينج»، اكتسب كل شيء وتيرة منتظمة، ليبدأ اليوم في الصباح بغسيل الملابس وينتهي بقصص ما قبل النوم التي ترويها «ويندي». كل شيء هادئ وفي موضعه ووقته الصحيح، لا ينقصه سوى وجود «كابتن هوك» وقراصنته (مات الجميع، رحم الرب أرواحهم المظلمة). و»بيتر» الذي عاد، كما كان متوقعًا، إلى «نيفرلاند». تلك العودة التي احتفلنا بها معًا مع عائلة «دارلينج» وأصدقائي الجدد في الجامعة في منزل العائلة. بدأ الشعر ينبت في وجهي وجسمي. سمعتهم يقولون إن هذه علامة أكيدة على البلوغ. تظهر عندما يستهل الصبي مرحلة البلوغ. أنا أتذكر كيف أنه وسط كل هذا التصفيق والتهليل المعتاد والصخب المصاحب لفتح الهدايا، وافقت «ويندي» على تقطيع «كعكة عيد الميلاد» وكيف أن فستانها قد ارتفع لأعلى عندما صعدت فوق الطاولة وساعتها كنت قادرًا على رؤية فخذيها البيضاوين وشعرت - للمرة الأولى بارتباك قاتل - بالإثارة كأي رجل. شعرتُ بالغضب الشديد من نفسي ووعدتُ نفسي بأنني لن – ها أنا هنا أعترف بذلك لأول مرة - أتخلى أبدًا عن «ويندي». وقد وفيت بالوعد وتزوجتها.

في الأسبوع الماضي، دفنا «بارني». أصغر التوأمين. مات بغباء وهو يمارس رياضة المشي الصباحية كعادته كل أحد أثناء عبوره لميدان «ترافلجار». كان المسكين يعاني من ثقل السمع لذلك فشل في سماع صوت تحذيرات سائق العربة وهو يعبر الطريق. بعد هذا الحادث، زعم السائق، الذي بدا عليه الأسف الشديد لما حدث أنه ظل يصرخ بأعلى صوته لكي ينبهه لكن «بارني» لسوء الحظ لم ينتبه، وكان يحملق عند وقوع الحادث في السماء ويبتسم لنفسه.

لم أناقش مع «بارني» قط أي من الأمور الهامة والجادة مثل سياسات رئيس الوزراء البريطاني «بينجامين دزرائيلي» أو فن «ما قبل الرفائيلية» (وهم مجموعة من الرسامين الإنجليز الذين قرروا رسم لوحات تحتوي على مشاهد من حقبة القرون الوسطى والقصص القديمة). استعاد البساطة والعذوبة نفسيهما اللتين كان يتمتع بهما في «نيفرلاند». شعرنا جميعًا بالأسف الشديد لوفاته، لدرجة أن «ويندي» لم تستطع أن تتمالك نفسها وانفجرت في البكاء.

حصل كل الأطفال المفقودين على تعليم لائق وأمان مادي كافٍ حقًا، تحت عناية العين اليقظة «لعائلة دارلينج»، لكي ينقذنا من التبذير والتبديد والإغراءات المحيطة بالطبقة الوسطى. كنا بحاجة شديدة إلى مهن جيدة.

لكن كل تخميناتنا حول القدر لم تكن فقط غير كافية بل كانت رديئة للغاية! أصبحتُ ناضجًا الآن وصحتي تخدمني بشكل جيد. أنا طاعن في السن لكي يتم تجنيدي في هذه الحروب القاسية (حمدًا لله) على الرغم من أن أبنائي الثلاثة ما زالوا رهائن تأدية هذا الواجب. وأنا لا أدري هل يجب علي أن أشعر بالقلق أم بالفخر. من ناحية أخرى، دعنا نضع حالة «بارني» في اعتبارنا. لقد ظل عازبًا وبلا أي طموح يميز به نفسه اجتماعيًا. كان شخصًا طيبًا وضعيف الشخصية، وموضع سخرية «مايكل» الدائمة. كان يقول له: «أوه «بارني» أنت ناعم مثل القطن، ولكن القطن أخف بكثير!». والكثير من النكات المختلفة. من ناحيته، تعامل «بارني» مع الأمر ببساطة وضحك عليهم. لم يعر الأمر أي اهتمام.

أعلم أنني عجوز وطاعن في السن ووقور ومحترم في الوقت ذاته بما يليق بالمستوى الاجتماعي لسيدة مثل «ويندي» في مجتمعنا، أنا أعلم أنها ما زالت غارقة في حب «بيتربان». فعلى الرغم من مرور كل ذلك الوقت، لم تنسه «ويندي» أبدًا.

ما زالت معه هناك في «نيفرلاند» عندما كانت «ويندي» فتاة صغيرة في التاسعة من عمرها. سألتُ نفسي ما الذي قد تتذكره سيدة ناضجة لديها حفيدة عن ذلك الوقت عندما كانت صغيرة في السن (ولم تكن حتى قد أصبحت ناضجة جنسيًا)؟ ما هو ذلك الشيء الذي ما زال يغذي مخيلتها عن ذلك الفتى الضعيف، والتائه، ومحطم القلوب؟ ما الذي اكتشفته هناك في زيارتها القصيرة لكن المثيرة لـ»نيفرلاند» لكي تبقى مفتونة بها حتى وقتنا الحاضر؟ إذا ما قارنتني به، أعلم أن هذه المقارنة ستُحسم ضدي. هل لأن وزني قد ازداد وأصبحت غير لائق منذ بلوغي سن الثلاثين، وأن جسدي يتحوَّل إلى كيان مجهول الهوية تحت الماء؟

هل ذلك بسبب أنه من السهل التنبؤ باختياري لما أقول أو أفعل؟ أنا متأكد من أن «ويندي» تؤمن بأن شخصيتي سطحية كأوراق «الكوتشينة»، بلا عمق على العكس من عقل «بيتر» «النيِّر» الذي يستطيع أن يركِّز في عمل شيئين ويظل قادرًا على المشاركة في لعبة محفوفة بالمخاطر في الوقت نفسه؟ أو ربما بسبب أنني دومًا ما ألمس معصمي لكي أتأكد إذا ما كانت أساور قميصي متوازية مع تلك الخاصة بسترتي؟ أو لأن المتوقع مني هو أن أتحدث بدقة وباللكنة الصحيحة وبجمل ذات بناء نحوي صحيح؟ (على الرغم من أن «مايكل» يخبرني بنية حسنة من أن لكنتي ما زالت تخون حقيقة أنني لم آتِ من عائلة نبيلة أو قديمة). أو لأنني يمكنني أن أُتهم بأنني غير ودود مع أطفالي، على

الرغم من أنني لا أصدق أن «ويندي» قد تذهب بعيدًا لهذا الحد؟ هي لن تفعل ذلك أبدًا، لأن ذلك الأمر بعيد كل البعد عن الحقيقة. ربما أكون قد اختلقت بعض الأبعاد «الأرسطية» بين مختلف أجزاء المنزل ومهامها. حقيقي أنني لم أحب أن حجرة الأطفال عندما كانوا صغارًا قد تم غزوها برائحة لبن الأطفال (على عكسي، اعتاد «بيتر» دخول حجرتهم من النافذة دون إذن). في الواقع، هذا المكان خُلق من أجل الأم والمرضعة. فعن نفسي، لا أحب عندما تقتحم «ويندي» و»جين» حجرة مكتبي بي دون إذن. لكن هذا الأمر ليس له أدنى علاقة بالحب، إنه يتعلق بالعادات المهذبة الخاصة باحترام خصوصيات الآخرين. فأنا أحب الحفيف الذي يصدر عن ورق الجريدة عندما أقوم بفتحها في الصباح. علي أن أعترف بأنني لا أجيد التعامل مع صحبة النساء. بدأ الأمر عندما كنت في «نيفرلاند»، وبعدها عندما عشت في المنزل رقم ١٤ وكل سنوات الدراسة بالجامعة. كنت محاطًا دائمًا بالذكور. كنت أتناول طعام العشاء في النادي عندما كنت شابًا. لم يكن مسموحًا سوى للرجال بالتواجد هناك. تمكنت من تكوين بعض الصداقات في غرفة التدخين وأثناء لعب «البلياردو»! فأنا ببساطة أجد أنه من الأسهل قضاء الوقت بصحبة رفاق من النوع نفسه.

والآن وبسبب كل تلك النقائص، فأنا لست شخصًا عاديًا. فأنا أحب أن أضع وردة صفراء في عروة سترتي وهذا شيء بالتأكيد يميزني عن باقي أعضاء النادي. كما أنني أفضِّل السيجار من الحجم المتوسط، والنساء اللاتي يرتدين المعاطف المصنوعة من الفراء الأبيض. أليس هذا أمرًا شاذًا وعجيبًا بعض الشيء؟ بالإضافة إلى أنني لدي هبة لا تُصدق، وهي قدرتي على التقاط أنغام أحدث الأوبرات. وهو ما يُعتبر في النادي دليلًا على شخصية لا يُستهان بقدراتها.

ولأنني مُتبنى، فقد حملت اسم عائلة «دارلينج» مثل كل الأطفال المفقودين. وعند وصولنا لرقم ١٤، سخر «مايكل» وقال إن عائلة «دارلينج»: «يتضاعفون كل يوم». كان على حق في قوله هذا. نحن الستة بالإضافة إلى الخمسة المقيمين بالفعل جعلوا منا عائلة كبيرة. لكن السيد «دارلينج» استطاع أن يحتضننا جميعًا بيده الحنون الرقيقة. ومنحنا جميعًا تعليمًا جيدًا وربَّانا على أن نكون أطفالًا مهذبين وراقيين داخل الإمبراطورية.

يقولون إنني كنت أكثر الأوغاد وسامة بين جميع الأطفال الضائعين عندما كنا في «نيفرلاند». كنتُ طفلًا صغيرًا بثلاث أسنان وكنت أنا الشخص الذي دفعته «تينكر بيل» كي يضرب «ويندي» بسهم. كانت تطير في الهواء كطائر أبيض ضخم. قال واحد منا – أعتقد أنه كان «سلايتلي» الذي دائمًا ما ان يدعي أنه يتذكر أشياءً من حياتنا قبل قدومنا إلى «نيفرلاند» - قال إن «ويندي» هو اسم أحد الطيور. استغلت «تينكر بيل» الفرصة وبدأت في الصراخ وإخباري بأن «بيتر» يريدني أن أصطاد «ويندي»! «بسرعة! بسرعة يا صغار سوف يصبح «بيتر» مسرورًا للغاية». أطعتها وأثبتُّ بأنني رام ماهر. أصبت الطائر إصابة مباشرة في الصدر. كنت فخورًا بنفسي لدرجة كبيرة عندما سقطتْ علىَ الأرض، ولكن سرعان ما أصبح واضحًا أن ما اصطدت بسهمي كان مختلفًا تمامًا عن أي طائر (فكما قال «هوراس»: «عادة ما لا يصيب السهم هدفه»). وبعد ذلك قال شخص ما: «إنها فتاة». أصبحتُ شاحبًا وبدأت أرتعش. لم أرَ فتاة من قبل. كانت عبارة عن أم جميلة أراها في أحلامي فقط. أول فكرة طرأت على بالي كانت: «هناك أم حقيقية قد أتت أخيرًا، وأنا قد قمت باصطيادها!». شعرت بالأسف بسبب الجريمة التي اقترفتها على الرغم من أنني قد تم خداعي كي أرتكبها من قِبل

«تينكر بيل». وافقت على الفور أن يتم عقابي وقتلي على يد «بيتر» والسهم نفسه الذي أطلقته على «ويندي». لحسن الحظ، وبينما أنا في انتظار عقابي جاثيًا على ركبتي استعدادًا له، تحرَّك ذراع «ويندي» وسمعها أحدهم وهي تقول: «أيها المسكين الصغير». أنا لم أفهم في البداية كيف كانت تعرف اسمي بالفعل. لم يصبها السهم بسبب زر بلوزتها، هذا الزر كان هدية من «بيتر» (كان مغرمًا بتذكيرنا بذلك) وهو ما أنقذ حياتها.

كانت «ويندي» تعاملنا حقًا مثل الأم، ليس بملء إرادتها لكن لكي تستطيع أن تلبي احتياجاتنا. لأننا كنا بحاجة لمن يرعانا ويروي لنا حكايات قبل النوم في «نيفرلاند». عندما انتقلنا للعيش في مدينة «لندن» تم الاستيلاء على دور الأم بواسطة السيدة «دارلينج» باعتبارها أكثر ملاءمة للدور. ولكن «ويندي» بقيت تتصرف بصورة وقائية نحوي، في البداية كأخت وبعد ذلك كزوجة. وهو ما استمر حتى يومنا هذا، وأراه واضحًا في الاهتمام الذي تبديه نحوي يوميًا، مثل أن تخبرني أي حذاء يليق بأي بدلة، وما إذا كان علي أن أرتدي قبعة عند زيارة أحد، أو تخبرني عندما تجدني قد أفرطت في شرب الخمر (في هذه الحالة، يتم التواصل عن طريق الابتسام، فهي لن تحذرني من شيء كهذا أمام الآخرين). كان واضحًا أنني تزوجت من «فريستي»، ومن «أمي»، ومن «أختي». وهي تحمل اسمي الأخير نفسه – «ويندي مويرا أنجيلا دارلينج – أو أنا من يحمل اسمها الأخير نفسه. ربما لهذا السبب دائمًا ما بدا زواجنا زواجًا لائقًا.. كما يجب أن يكون الزواج. أنجبنا ثلاثة صبيان، خدم مخلصين لجلالة الملكة، وفتاة واحدة.. ابنتنا «جين» الصغيرة والتي أنعم عليها الرب بابنة صغيرة أسمتها «مارجريت».. حفيدتي. وكما يقول المثل: «الزوجة المطيعة كنز».

ولهذا فأنا لا أجد سببًا مقنعًا أفسر به اضطرابات النوم التي عانيت منها مؤخرًا. في «نيفرلاند»، نمت تحت الأرض في نوع من أنواع السراديب على أرضية صلبة عارية يفصل بيننا سرير مصنوع من أوراق الشجر ولم يكن لدي سوى فراء الدب ليشعرني بالدفء. القراصنة والحيوانات المفترسة والبرية، والأشباح والوحوش ربما تكون هناك بالخارج تتربص بي في الظلام، ولكنني رغم ذلك كنت أنام نومًا عميقًا. واليوم، وأنا أعيش في بيت كبير، تقريبًا في حجم القصر، ومليء بالخدم وغرف النوم المريحة ذات المراتب العريضة الطرية، فإنني أستيقظ في منتصف الليل، وأنا مضطرب وغارق في عرقي، ولا يمكنني أن أعود مرة أخرى للنوم لفترة طويلة بعد ذلك.

وكأن الكثير من حبات البازلاء قد تم وضعها تحت المرتبة، لتوخزني وتقلق منامي. «شيخوختك هي التي تقلق منامك. لقد هرمنا وتُركنا وحدنا». «وحدنا؟». «مع أنفسنا. وحدنا مع أنفسنا». وفي ليلة ما أنا متأكد، هذا الحقير «بيتر» سوف يطير في حجرة حفيدتي «مارجريت» وأنا راقد أتقلب وأتلوى في فراشي (وقد تساقطت أسناني.. عدتُ كما كنت في «نيفرلاند» دون أسنان، ولكن الفرق هو أنني أكبر بستة عقود)، وبمجرد طيرانه داخل حجرة ابنتي «جين» وزوجتي قبلها. سوف يجلس على فراشها ويبدأ في تقليد صوت الغربان! وعندما تستيقظ «مارجريت» سوف ترى صبيًا جميلًا ولن ترى فيما وراء كل هذا الجمال أنه في الحقيقة سيئ جدًا. ليس سيئًا لأنه لم يزل الطين من على حذائه، ولكن سيئ لأنه لا يهتم بأي شيء إلا متعته. حفيدتي، تمامًا مثل أمها «جين» و»ويندي» قبلها، لن تتمكن من رؤية أي من هذا. لن ترى سوى صبيًا جميلًا سيعلمها كيف تطير إلى «نيفرلاند» المعجزة.

كل هذا سيستمر إلى الأبد، حتى عندما أصبح عظامًا في القبر، وأتفتت وأتحول إلى تراب. نعم، سيظل «بيتر بان» يزور الفتيات ويتباهى في صلف وغرور ويغريهن إلى الأبد. سيظل شابًا صغيرًا غير ناضج. بعض المسنين يتصرفون مثل الأطفال، ولكنه أبدًا لن يهرم.

عندما أموت (بسبب نوبة قلبية على ما أعتقد)، حبيبتي «ويندي»، بما لها من سمعة طيبة ومحترمة كأرملة، لن ينقصها شيء. أبنائي سوف يتذكرونني باحترام يشبه كثيرًا الانبهار الذي كانوا يشعرون به في حضوري. سيتصدر نعيي جريدة «التايمز». وأعتقد أن «ويندي»، و»جين»، و»مايكل» سوف يذرفون الدمع الغزير علي في جنازتي.

أفترض أنني في لحظة الموت الفعلية سوف أكون قد امتلأت بالفعل ببعض الدهشة. بقدر ما «بيتر» معني بالأمر، فأنا أتخيل أن أحدهم ولو بالصدفة قام بإخبار «بيتر» بأنني مت. أنا متأكد من أنه سيقوم فقط بفرك شعره غير المسرَّح وسيقول: «ومن يكون هذا الشخص بحق الجحيم؟».

رحل الحمام بعد أن حصل على وليمته وودعني بمنتهى العطف والمحبة: «إلى اللقاء! حتى الأحد القادم في الميعاد نفسه!» كما قال الشاعر الروماني الحكيم «هوراس»: «تمر السنوات، وتجردنا من شيء تلو الآخر».

- هل تريد العودة مرة أخرى إلى «نيفرلاند؟

سألني «مايكل» في إحدى الليالي.

- ونحن هكذا؟ بالتأكيد لا.

- أنت على حق. أنا لم أفكر في الأمر من هذه الناحية!

ضحك مصحوب بجرعة كبيرة من السخرية تعادل أكثر مما يمكن أن تقدمه طبيعته المرحة. ولكنني تأكدت في تلك اللحظة من أننا نحن الاثنين قد شعرنا بالحزن.

القصة التاسعة

"بابراديشكي"

«يجب أن تُروى أحداث هذه القصة الخيالية على مسامع الفنانين الصغار».

بدأ الأمر برمته بلقاء غير اعتيادي داخل مقصورة الدرجة الأولى بالقطار السريع المتحرك من محطة «بلجراد» والمتجه نحو «سكوبيه».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

من المؤكد أن الأمر حدث بعد مرور أكثر من ساعة أو ساعة ونصف أو ربما ساعتين بعد مرورنا بمدينة «نيش» الصربية وفي الوقت الذي بدأت فيه أنتظر نهاية رحلتي، بدأ القطار في تغيير سرعته على تلك القضبان الصدئة، مبطئًا تارة ومسرعًا تارة أخرى هكذا بالتبادل.

فجأة، وبشكل غير متوقع تمامًا، وكأنما دخل بواسطة ومضة من البرق، ظهر فجأة أمامي ومن حيث لا أدري في المقعد الشاغر المقابل لي، صبي!!

لطالما اعتدت السفر بصورة متكررة لمدينة «سكوبيه». تقريبًا مرة كل شهرين عندما كنت أعمل لدى مجموعة من مهندسي البناء البلجيكيين الذين كانوا يجرون بعض الاختبارات على أحد الميادين الرئيسية لكي يقرروا ما إذا كان الميدان سيحتمل كافة المنشآت والمباني التي تم إنشاؤها فيه دون تغطية. وإذا ما كان الحفر المكثّف سيؤثر على نهر «فاردار» أم أنه قد يؤدي إلى فيضانه ليجتاح الميدان بعد ذلك.

سافرت إلى «سكوبيه» بالقطار، ولكي أكون أكثر دقة، فإنني قمت بتغيير العديد من القطارات وقد تخلل هذا التغيير العديد من فترات الانتظار بين: بروكسل - باريس، وباريس - بلجراد، وبلجراد - سكوبيه.

ليس هناك سبب واحد يدفعني للسفر بالقطار سوى أنني لدي خوف مرضي من السفر بالطائرة! على الرغم من أن الطائرات تُعتبر وسيلة نقل معقدة وتتمتع بأعلى درجات الأمان والتنظيم والدقة، لكن الحقيقة أن جل مخاوفي تتركز في فكرة ما إذا وقع خلل بالطائرة التي تقلني وكيفية مواجهتي لهذا الخلل غير المتوقع باعتباره أحد مخاطر الطيران.

أتذكر أنني عندما كنت طفلًا صغيرًا، كنت أخشى المصاعد الكهربائية، وهذا الدوار المخيف الذي يصيبني عندما أفكر في الطائرات اليوم هو نوع من أنواع الفوبيا التي أعاني منها. فالشعور بالقلق الشديد كونك قد تموت فجأة وبلا وسيلة تدافع بها عن نفسك وأنت محصور داخل طائرة تسبح في ذلك الفضاء الفسيح! أنا بالطبع أعلم تمامًا مثل الرجل الذي يجلس إلى جواري أن الإحصائيات تقول: «إن مثل تلك المخاطر والكوارث نادرة الحدوث وأن حوادث السيارات والقطارات أكثر شيوعًا». ولكن الواقع أيضًا يقول عندما تتحطم الطائرة، فأنت مقتول لا محالة! بالإضافة إلى أن رحلات الطيران

تكون فائقة السرعة وأن الطائرة تحلق عادة على ارتفاعات شاهقة فور إقلاعها. فمن ذا الذي سيقدم لك يد العون لينقذك هناك؟

وعلى الرغم من كل التأجيلات وتبديل القطارات، إلا إنني اعتدت على السفر بالقطار. فأنا أشعر بالأمان في القطار، وفي القطار أستطيع أن أتناول قضمة من «ساندوتشي» المفضل وأن أقرأ أحد الكتب الممتعة والمثيرة. وفي القطار يكون لدي دومًا متسع من الوقت لكي أنهي قراءة الكتب. واكتشفت عبر أسفاري، أن القصص البوليسية هي أكثر الروايات التي تجذب انتباهي. عندما وقعت الحادثة العجيبة المشار إليها بالأعلى، كنت في منتصف أحد القصص البوليسية التي تتحدث عن مغامرات المفتش «ميجرى».

يبدو أنني كنت مستغرقًا بشدة في القراءة لدرجة أنني لم ألحظ كيف ومتى تمكن هذا الصبي ذو الشعر الأشعث والأنف الكبير والخوف الشديد الذي يملأ عينيه من الظهور فجأة أمامي في المقصورة التي كانت قبل تلك الحادثة شاغرة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كلما نظر من نافذة المقصورة على الأشجار والمنازل التي تتحرك بسرعة، تتسرب من بين شفتيه أصوات ذعرٍ تشبه الصرخة المطولة. ويداه مطبقتان بشدة على حقيبة مربوطة بحبل، وفي الوقت نفسه يدفع بقدميه نحو المقعد المقابل له وكأنه يريد أن يوقف القطار.

وما بين تقلصاته، يستمر الصبي في ترديد كلمات غير مفهومة تنتهي بالمقطع: «شته».

حاولت أن أهدئ من روعه:

- اهدأ يا صغيري. كل شيء سيكون على ما يرام!

- شته.. «أديشتا».

ظل يتمتم.

- ليس هناك شيء يدعو للخوف.

- «راديشت».. «بارديشت».

- من أنت؟ وإلى أين أنت ذاهب؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بدأ جسد الصبي ذو الحظ العثر يرتعد كله مرة واحدة وبشدة. في البداية، حملق في وجهي وبعدها في النافذة. من الواضح أنه لم يفهم لغتي الفرنسية وكنت في حاجة لبعض المساعدة.

لكن عند عودتي إلى المقصورة، بأقصى سرعة ممكنة وبصحبتي الكمسري، وجدت المقصورة فارغة تمامًا والنافذة مفتوحة على مصراعيها. فكرت بصوت عالٍ أن الصبي ربما ألقى بنفسه من

النافذة، لأن من الواضح أنه كان في حالة من الضيق الشديد بسبب شيء ما.

نظرتُ أنا والكمسري من النافذة، وبالطبع، فشلنا في رؤية أي شيء ما عدا الأحجار والأشجار التي تمر على طول القضبان، والحقول الخضراء والجبال الزرقاء الممتدة على طول الطريق. وفي حالة إذا ما كان تخميننا صحيح وأن الصبي قد ألقى بنفسه بالفعل من النافذة، فإننا بالتأكيد قد اجتزنا موضع سقوطه بمسافة كبيرة.

بدا (الكمسري) أقل اهتمامًا بأمر الصبي مني، وخمن أن الطفل ربما يكون قد انتقل إلى عربة مختلفة. أوصاني كذلك بأن أتفحص أشيائي لكي أتأكد مما إذا كان كل شيء في مكانه. وجدت رده هذا جارحًا وذميمًا لأقصى درجة، لأنني استرجعت في ذاكرتي مشهد الصبي وإلى أي مدى بدا أمينًا لي، على الرغم من أنه بدا مذهولًا وغائبًا عن الوعي أكثر.

وإذا بالقطار وأنا أفتح الحقيبة يهتز اهتزازة قوية وهو يتخذ أحد انعطافاته الحادة، وهو الأمر الذي قطع رتابة مساره المعتاد ليعلو صوت صرخة الفرامل.

أصابتنا الدهشة نحن الاثنين حيث إن ملابسي، وبعض الأغراض الأخرى، قد تبعثرت بين المقاعد وعلى الأرض.

كان الشيء المجهول الآخر عبارة عن مسحوق مادة الكوبالت الأزرق. والذي انسكب من حقيبة الصبي الجلدية البالية التي كان متشبثًا بها بشدة بكلتا يديه والتي تركها خلفه أثناء معاناته من حالة التوتر الرهيبة التي أصابته.

حاولت جاهدًا إزالة أثر هذه البودرة من على أرضية المقصورة بمنديل ورقي لكن ما حدث في النهاية هو أنني خففت قليًلا من حدة اللون الأزرق الداكن المسكوب ولطخت رقعة أكبر من الأرضية باللون الأزرق الفاتح بسبب حركة يدي. لاحظت أثناء عملية التنظيف، أن المادة المسكوبة هي نوع من أنواع بودرة الألوان وأنني لم أغطي الأرض ببودرة الكوبلت تلك وحسب بل حولتها إلى طلاء أزرق اللون عندما استعنت بقدر من الماء في عملية التنظيف.

حينها قلت لنفسي: «لقد استمررت في القيام بما لا يجب علي القيام به». وباحتقار لم يحاول إخفاءه من على وجهه، تركني الكمسري في المقصورة كي أرتب أشيائي. لحسن الحظ، لم يرَ الفوضى التي أحدثتها بالطلاء.

وبينما أنا جاثٍ على ركبتي أنظف الأرضية بلا جدوى، قمت بتلطيخ شيء آخر لم يكن بين أغراضي. شيء ما تدحرج على الأرض ليستقر تحت حقيبتي.

تبيَّن لي بعد ذلك أن هذا الشيء الذي تم تلطيخه هو فرشة ألوان صغيرة برزت شعيراتها الكثيفة الخشنة من تحت الشنطة. التقطتها. كانت هيئتها تدل على أنها قد استُخدمت كثيرًا جدًا. وأن الطلاء والفرشة كليهما يشيران إلى حقيقة أن هناك علاقة ما تربط بين هذا الصبي وعالم الرسم والألوان. ولكن بأي صورة؟

في تلك اللحظة، استيقظت بداخلي روح المحقق البلجيكي «هيركيول بوارو» هذا لأنني لست فقط محب لقراءة الروايات البوليسية - كما سبق ونوهت - ولكن لأنني في الأصل بلجيكي. وهناك أربعة أشياء يشتهر بها البليجيكيون؛ لاعبات التنس، والكتب الهزلية، والمحققان البوليسيان الأشهر على الإطلاق: المحقق «بوارو»، والمحقق «مايجريت».

المحقق الأول هو شخصية بلجيكية ابتكرتها سيدة إنجليزية، والشخصية الثانية هي شخصية باريسية ابتكرها كاتب بلجيكي الأصل. ونتيجة لذلك، لم يكن بمقدوري أن أرحل دون أن أخدش سطح اللغز الخاص بهذا الصبي الغريب الذي ظهر واختفى فجأة من داخل المقصورة.

الأمر الذي لم يفارق تفكيري كان ذلك الاسم الغريب الذي عكف الصبي على ترديده: «براديشت». كلمة كررها الصبي عدة مرات قبل أن يختفي والتي وجدت من الصعب علي أن أنطقها بلكنة صحيحة.

بمجرد وصولي إلى مدينة «سكوبيه» شرعت في البحث في كل مكان عن «براديشت» هذا؟ وقد كان علي في ذلك الوقت أن أحتمل سخرية رفاقي المقدونيين بسبب نطقي الخاطئ للكلمة. تم إخباري بأن هذا الاسم هو اسم إحدى القرى التي تبعُد مسافة ٧ كيلومترات عن مدينة «بوجوميلا»، وهو اسم غريب آخر ذكَّرني بأجدادي «الكاثار» الذين خرجوا من هذا الجزء من العالم.

بالنسبة لي كان هذا اكتشافًا مثيرًا في حد ذاته. وقد كنت مندهشًا لأنني وجدت أن لا أحد من رفاقي في «سكوبيه» يعرف سوى القليل عن هذا الأمر. وفجأة فتحت فصًلا جديدًا في التحقيقات التي أجريها.

في إحدى بيوت الشاي التركية الموجودة في البلدة القديمة والتي تُدعى «جاليريٍ»، توقفتُ لكي أدفيء نفسي باحتساء القليل من الشاي. التقيت صدفة بأحد الرسامين المتخرجين حديثًا من أكاديمية الفنون. خمنت بحسي البوليسي من اسم المكان والجداريات التي تغطي جدرانه، أن بيت الشاي التركي هذا هو ملتقى للرسامين والفنانين الموجودين هنا. صدق حدسي، فأثناء تحاوري مع بعض الضيوف الموجودين هناك، اكتشفت أن هؤلاء الفنانين أناس لطاف ومنفتحون وعلى استعداد كامل لمناقشة أي موضوع. «إيكو» وهو اسم أحد الرسامين الشباب الموجودين هناك، والذي انضم إلى الحوار عن «بابراديشت» على الفور. تحدث بلغة إنجليزية أفضل من تلك التي أتحدث بها، وأخبرني بأن أول رسام مقدوني ذائع الصيت كان من أبناء قريتي. وكان يُدعى «ديميتر أندونوف»، وأضاف أن «بابراديشكي» هو لقبه. عندما كان «بابراديشكي» صبيًا صغيرًا، قام بمعاونة أبيه وفرقته من الباحثين المتخصصين في رسم الحيوانات؟ ما الذي يعنيه هذا بالضبط؟ سألته عن هذا اللقب. فأجاب بأنه اللقب الذي كان يطلق على كل الرسامين بشكل عام ورسامي الجص بشكل خاص في العصور البيزنطية الوسطى.

بدا الشاب بلحيته الحمراء شبيهًا بالمتخصصين في رسم الحيوانات. ومعرفته في هذا المجال على وجه الخصوص كانت عميقة للغاية وقد تشاركها بمنتهى الحماس مع الحضور مما أجبرني على مشاركة تجربتي التي لا تصدق والتي مررت بها وأنا في القطار. كان «إيكو» مفتونًا بقصتي واقترح علي أن نذهب معًا إلى المعرض الدائم لأعمال الرسامين «البابراديشكيين». والذي تم تنظيمه

للاحتفال بالذكرى المائة وخمسين لميلاد «بابريديشكي». (يا لها من مصادفة عجيبة). كان المعرض في مكان قريب من الحمَّام التركي الذي تم تحويله إلى «جاليري».

- وكأن الأمر قد دبِّر من قِبل قوى عليا!

قال الشاب وقد ارتسمت على شفتيه ابتسامة رقيقة.

شعرت بشعور متزايد من الإثارة يشبه إلى حد كبير ذلك الشعور الذي شعرت به ذات مرة وأنا طفل صغير أثناء استكشافي لبعض المباني المهجورة الموجودة في ضواحي مدينة «بروكسل».

انطلقنا من بيت الشاي على طول الطريق الوعر المغطى بالثلج المختلط بالطين حتى وصلنا إلى مبنى حجري قديم يبدو من هيئته أنه غارق في عمق وعبق الأزمنة القديمة. حيث ملأ معرض «بابراديشكي» أكبر غرفتين من غرف الحمام التركي.

كانت أعمال «بابراديشكي» ضخمة ومتنوعة ما بين لوحات ومناظر طبيعية خلابة، إلخ. وفي الحجرة المركزية، يوجد منصة تضم كل أدواته ومعداته الفنية: الحامل الخاص بلوحاته، وصورة ذاتية من زاوية جانبية له وهو في سن التسعين من عمره، وطاولة الرسم الخاصة به وفرش التلوين، والألوان التي كان يستخدمها ملفوفة في ورقة رمادية اللون وزيت بذرة الكتَّان، وكرسي دون ظهر قديم عليه وسادة باليه ورثة. أخبرني «إيكو» أن «بابراديشكي» مات وهو يرسم.

- ولكنها الفرشاة نفسها واللون الأزرق نفسه اللذان سبق وشاهدتهما في مقصورة القطار!

رنَّ صوتي في أرجاء المكان.

في وقت واحد تقريبًا، خرجنا أنا و»إيكو» بفكرة أن المرحلة التالية من رحلتنا يجب أن توجه لزيارة محل ميلاد «بابراديشكي».

عرض علي «إيكو» أن يقلني بسيارته إلى هناك، ولكنني اقترحت - في حالتنا هذه - البديل الأكثر غموضًا ألا وهو؛ القطار. لحسن الحظ كان هناك قطار متوجه من «سكوبيه» نحو «فيليس» ومنها إلى «بوجوميلا» و»بابراديشت»؛ لكن لسوء الحظ كان قطار شحن بضائع!

تحرَّك قطار الشحن بصعوبة بالغة محدثًا المزيد من الصرير والنفخ. واستغرق ثلاث ساعات في الطريق لكي ينهي الرحلة وهو يسير على سرعة أقل من مائة كيلومتر في الساعة، وهذا حتى كان كثيرًا علي أنا العاشق المحب لركوب القطارات.

كانت عربات القطار تحدث الكثير من الجلبة والضوضاء وتتحرك بمنتهى البطء، محملة بكل أنواع المسافرين والدجاج الخائف الذي يحمله أصحابه في أكياس من القماش. ولكنني أنا و»إيكو» لم نشعر ولو للحظة واحدة بالملل. لا ونحن منهمكين في النقاش أو عندما وقفنا ببساطة في صمت نحدِّق من خلال النوافذ في الجبال المغطاة بالثلوج.

نزلنا معًا في «براديشت» ومعنا مجموعة من متسلقي الجبال اللذين أرادوا قضاء عطلة نهاية الأسبوع في غزو قمة الجبل القريبة من هنا (اسم الجبل، على ما أتذكر، يبدأ بحرف «تش»). توجهنا

أنا و»إيكو« مباشرةً نحو الكنيسة التي تقف بشموخ وكبرياء على تلة شهيرة في مركز القرية.

في داخل كنيسة «القديس بطرس» والقديس «بولس» رحَّب بنا شابٌ يُدعى «ميثوديوس»، وهو قس ٌشاب ممتلئ لحيته حمراء تمامًا مثل لحية «إيكو» ولكنها أطول قليًلا.

- بالطبع أنا أعرف من هو! «أندون ديميتار» عاش حياة طويلة. وقد وافته المنية وهو في الـ٩٥. اعتاد المجيء إلى «برادیشت» بانتظام على الرغم من أن «الشيوعيين» كافؤوه بمنحه معاش كريم في «سكوبيه». نعم، اعتاد أن يروي لنا قصة عجيبة وغريبة لدرجة أنني تصورت أنها إحدى تخاريف الشيخوخة. أنا أتذكرها جيدًا. كان يرويها وكأنه يروي حلمًا رآه. تدور القصة حول رحلة قام بها لصربيا وهو صبي في سن الرابعة عشر من عمره. كان في طريقه لرؤية والده «أندون» الذي أخذ على عاتقه مهمة رسم اللوحات الجدارية الخاصة بكنيسة «القديس نيكولاس» الموجودة في مدينة «جنجيلان». أراد أن يعرف هل يمكنه أن يكون ذا فائدة لأبيه، وما إذا كان قادرًا على تعلم حرفة رسم الحيوانات. كانت رحلة طويلة ومرهقة. وفي مكان ما قبل بلدة «نيش» تعثرت دابته وسقط الفتى النائم على الأرض. الشيء الثاني الذي تذكره، كما أخبرني، أنه فجأة وجد نفسه داخل أحد القطارات. في ذلك الوقت لم يكن متأقلمًا مع فكرة القطارات. بدا القطار له كثعبان حديدي مرعب وطويل.

تكوَّم بعيدًا في أحد الجوانب بينما هذا الوحش الحديدي يتحرك بسرعة لا تُصدق، وهو يقذف بالدخان الكثيف. وجد نفسه فجأة داخل حجرة ضيقة داخل رحم هذا الوحش وقد التقى هناك بأحد الغرباء الأجانب الذي كان يرتدي ملابس غريبة ودون قبعة أو عصى للسير. كان بنطلونه ذا لون أزرق متفاوت الدرجات وكان قميصه بالٍ بعض الشيء. طرح بصوت عالٍ عدة أسئلة على «ديمتري» بلغة لم يفهمها وبعدها خرج مهروًلا من الغرفة تاركًا الصبي أكثر رعبًا وخوفًا مما كان. اعتقد الصبي أن هذا الغريب سيلقي به من النافذة عند عودته. فشبك الصبي يديه وتضرع لله أن ينقذه وألَّا يتركه يتعذب ويقطع إربًا بواسطة هذا الوحش ذو الفك الحديدي الساخن وخدمه المهتاجين بشدة.

وبينما هو جاث على ركبتيه منهمك في صلواته، رأى وميضًا عظيمًا أعمى عينيه، ووجد نفسه فجأة جريحًا ويرتجف من شدة الرعب في قاع حفرة على جانب الطريق بجوار حماره المسكين. في تلك اللحظة، سمح لنفسه بأن يبكي. وإذا به وهو يحتضن حماره في ارتياح، تذكَّر أنه قد ترك فرشاته وحقيبة ألوانه داخل هذا الوحش المعدني.

قررنا أنا و»إيكو« أن نقضي الليلة في القرية، وقد نتج هذا القرار عن إصرار القس على بقائنا، إضافة إلى أننا في الأساس لم نرد ترك «بابراديشت» بهذه السرعة. اقترح علينا القس أن نقضي ليلتنا بأحد المنازل في القرية. وفي تلك الليلة وتحت سماء ممتلئة بالنجوم في باحة المنزل، ونحن نرتدي معاطفنا وقد أنعشنا طعم جبن الماعز التي قدمه لنا مستضيفنا على أحد الموائد المنخفضة، حاولت أنا و»إيكو« أن نوجد صلة وعلاقة تربط ما بين التجربة الغريبة التي مررت بها في القطار والقصة التي رواها القس «ميثوديوس».

- ما معنى كل هذا؟ هل تعتقد أن كل ما حدث هو عبارة عن تغيرات في الزمن تحدث في تلك البلد، وأن السفر عبر الزمن ممكن!

بعد أن حملق في وجهي عن قصد لبعض الوقت، أجاب «إيكو» في النهاية:

- بالطبع، هناك أشياء تحدث بالمخالفة للتدفق الطبيعي للزمن. أتذكر حادثة مشابهة لما حدث لك بالقرب من هنا في بلدة «فيليس» المجاورة. قام رجل يُدعى «هادجي كوستا كريستف» عام ١٨٥٥ بطلاء كنيسة «القديس ديمتريوس» في بلدة «فيليس». (طلبت من «إيكو» أن يدون هذا الاسم بالحروف اللاتينية في دفتري وهكذا عرفت كيف أنطقها). وقع ذلك الرجل باسمه تحت إحدى الجداريات، وأطلق على نفسه لقب «رسَّام حيوانات ومصور».

- معذرة، ولكنني لا أفهم ما علاقة الأمر بتوقيع «هادجي» هذا (نظرت إلى دفتري). توقيع هذا الـ»كريستيف».

- الصلة تكمن في أنه في عام ١٨٥٥؛ أي بأربعة أعوام قبل ميلاد «بابراديشت»، والذي كما سبق وأخبرتك، كان هو آخر مصوري الحيوانات المقدونيين وأول فنَّان بالمعنى الحديث للكلمة. هذا التوقيع يُقر أن التصوير الفوتوغرافي قد اعتُمِد هنا قبل «الرسم اللاإكريليكي» بوقت طويل. داخل ألبوم الصور الخاص بعائلتي، كانت هناك صور لجدي الأكبر «بروكوبيوس» قد التُقطت قبيل قيام «باراديسكي» برسم لوحة مصنوعة من القماش لنفسه.

نعم، لطالما اعتقدت أنه من الصعب أن نفسر بعض الأشياء التي تحدث بصورة منطقية، حتى بالنسبة لمواطن وطني مخلص لـ»بوارو». إن الغرض الذي أتى بي إلى هنا - إلى «مقدونيا» - هو محاولة رفع الميدان الرئيسي الذي بدأ يهبط تحت وطأة المباني الكثيرة. هذا الأمر لم يكن له تفسير هندسي منطقي، ولكن الميدان كان يحتاج إلى رفع وتعلية وهذا هو مجال تخصصي. وأنا أتكلف مبالغ كبيرة مقابل عملي هذا. فعطلة نهاية الأسبوع التي قضيتها في النزل الداخلي المسمى «لوسيا» بالقرب من بحيرة «أوخريد» كلفتني وحدها نصف الأجر الذي أتقاضاه أسبوعيًا ناهيك عن تكلفة الأمسيات الرائعة التي أقضيها في البلدة القديمة لأتناول كرات اللحم الطويلة والتي تسمى «كباب» المصحوبة بأطباق الفول والمتبوعة بالقمح المسلوق بسعر قليل مقارنة بالمبلغ الموجود في محفظتي ولكنها تمثل متعة كبيرة لمعدتي.

استرسل «إيكو»:

- الشيء الأكثر إثارة في الموضوع، هو أن «بابراديشكي» قد رسم العديد من اللوحات الذاتية التي تصوره وهو في مراحل عمرية كثيرة. فقد رسم لوحة لنفسه وهو صبي في سن الخامسة عشر، وأخرى عندما أصبح رجلًا عجوزًا ناضجًا. كان جليًا أن لوحة الصبي البالغ من العمر خمسة عشر عام والمرسومة على القماش ليست انعكاسًا في المرآة ولكنها انعكاس لأزمنة مختلفة في حياته، وقبل وقت طويل من حفظ الشكل في صور. اعتاد دومًا على استخدام الصور الفوتوغرافية في رسم صوره الذاتية.

طلبنا المزيد من أطباق جبن الماعز قبل أن نعود إلى غرفنا غير المدفئة لننام على أسرتها المفروش عليها أغطية «اليامبوليا « اليونانية (نوع من أنواع الكليم اليدوي المصنوع من صوف الماعز). لففت

نفسي فيها. كنت أشعر بالإرهاق. رحت في نوم عميق على الفور. حلمت كثيرًا، وبصورة غير مترابطة. لكن، في الصباح، كنت ما زلت أتذكر تفاصيل حلمي الأخير.

حلمتُ بأنني واقفٌ عند البوابة الأمامية للمنزل الذي يبدو مربع الشكل وعلى هيئة صندوق. ودَّعني رجل قصير ممتلئ الجسم ذو شارب مهذب. كان يرتدي ملابسه بأناقة وحذائه لامع كأنه قد انتهى من تلميعه في التو. ارتدى كذلك قبعة ذات لون رمادي فاتح على رأسه.

قال الرجل: «يا له من منظر بديع!».

قال تلك الجملة على الرغم من أن التعبير المرسوم على وجهه البشوش المعتنى به لا يُعبِّر عن استمتاعه بالمشهد.

«اذهب يا صديقي. حان موعد القطار. والقطار لن ينتظرك. فمكانك بين الأحياء. أنا سأبقى بين الأموات». وبعدها أضاف في صوت واضح تردد صداه في الحلم.

«إلى اللقاء يا صديقي».

وددت أن أقول له إنني لطالما رغبت في البقاء، لكن في حلمي كنت بالفعل أغادر راكبًا قطارًا أسرع وأحدث من الذي أتيت به إلى «بابراديشت». بدا القطار وكأنه لا يسير على قضبان على الإطلاق. لم أسمع صوت حركة القطار المعتادة، وكأنه ينزلق على هواء رفيع. تشاركت المقصورة ما شاب يافع يرتدي سروالًا من الجينز و»تيشيرتًا» ممزقًا. كان هذا المشهد شائعًا بين الشباب في ذلك الوقت. حملق الشاب في وجهي وهو في حيرة من أمره.

شعرت بالقطار وهو يسرع.

القصة العاشرة

الحاج، والإسكافي، والأحمق

«يجب ألا تُروى أحداث هذه القصة الخيالية أثناء تناول أرجل الضفادع».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في يوم من ذات الأيام قرر حاج، وإسكافي، وأحمق أن يسافروا معًا في رحلة طويلة.

كان لكل منهم سبب مختلف للقيام بهذه الرحلة. فعلى سبيل المثال، أراد الحاج أن يصل إلى الهدف الذي من المفترض أن يتوِّج سنوات طويلة عديدة قضاها في الجد والاجتهاد الروحاني.

أمَّا بالنسبة للإسكافي فقد كان يعلم أن هذا الحاج وكثيرين غيره قد يكونوا في حاجة لخدماته في رحلتهم الطويلة تلك، سواء لكي يصلحوا أحذيتهم القديمة أو ليصنعوا أحذية جديدة بعدما تتمزق أحذيتهم القديمة. كل هذا نظير سعر مقبول. أما الأحمق فقد سافر معهم بالطبع من أجل الصحبة.

سار الجميع لمسافة يوم أو يومين ليبدأ بعدها الأحمق في الشعور بالتعب. وقد قرر أن يسأل الحاج إذا ما كان من الممكن أن يحمله على ظهره لمسافة عشرة كيلو مترات أو حتى يستعيد عافيته. فهم الحاج من طلبه هذا أنه إشارة من الرب، واختبار لإيمانه، لذلك وافق على طلبه على الفور. وحمل الأحمق على ظهره، ليس فقط لمسافة عشرة كيلومترات، أو عشرين ولكن لثلاثين كيلومترات أو أكثر. زاد ثقل الأحمق على ظهر الحاج بشكل كبير لكن أفكاره كانت دومًا طاهرة ونقية ولم يتوقف عن حمل الأحمق على ظهره حتى تمزق حذائه وغطت القروح والدمامل أقدامه. حينها عرض الإسكافي على الحاج أن يصنع له حذاءً جديدًا مقابل سعر مقبول. كان الحاج ممتنًا للإسكافي بسبب العرض الذي قدمه له وقرر أن يمنحه ضعف الثمن الذي طلبه كي يصنع له حذاءً جديدًا.

استأنف الجميع رحلتهم. وفي طريقهم، مروا ببركة، أو بالأحرى، بمستنقع، احتشد فيها جمع من الضفادع وصغارها. كانت الضفدعة الكبرى هي الإمبراطورة، وكانت تتمتع بقوى سحرية. جلست على أكبر الصخور الموجودة وأخذت تتفرس ملامح المسافرين.

أراد الإسكافي أن يهشها لتذهب بعيدًا. لكن الحاج منعه وقال:

- إن الضفدع من صنع الرب مثلك ومثلي.

في تلك الأثناء خاض الأحمق في المستنقع ونادى على الضفدعة.

- هل تحققين الأماني؟

فأجابت بهدوءٍ تام وكأنها كانت تتوقع أن تُسأل مثل هذا السؤال:

- بالطبع، أنا أفعل والدليل على ذلك أنني سأمنح ثلاثتكم ثلاث أماني لكل واحدٍ منكم أمنية.

أول من قام بالتمني هو الإسكافي.

- أمنيتي هي أن تمنحينني مصنعًا!

والتالي كان الحاج، بعد وقت قصير من التأمل والتفكير أعلن بهيبة ووقار أن أمنيته الوحيدة هي الوصول إلى هدفه. وأنه كلما كان الطريق طويلة ومليئة بالمخاطر، كلما كان الثواب والأجر أكبر وأعظم.

أمَّا الأحمق فقد صرخ بأعلى صوته وعيناه جاحظتان كعيني الضفدع وقال:

- أمَّا أنا فأمنيتي هي أن أصبح سياسيًا!

عندما عاد الإسكافي إلى وطنه وجد بالفعل مبنى كبيرًا موضوع عليه لافتة مكتوب عليها «مصنع». وبعد وقت قصير، قرر أن يترك مهنة صناعة الأحذية وبدأ في بيع السيارات المستعملة.

أما الحاج فقد عاد إلى موطنه بعد أن قضى سنين طويلة في الحج. وقد أصبح شعره أبيض، وامتلأ وجهه بالتجاعيد وكان مريضًا بشدة. لكنه كان سعيدًا. ليموت بعد ذلك بأسبوعين وقد ارتسمت على وجهه ابتسامة جميلة.

أما عندما عاد الأحمق وهو يجر قدميه إلى موطنه، وجد سيارة ليموزين أحدث موديل تنتظره أمام باب منزله وبداخلها سائق يرتدي بدلة رسمية. وسيارة أخرى فارهة تقف خلفها، وبداخلها رجلان ضخمان يرتديان بدل رسمية ورأساهما حليقتان.. لم يكونا سائقين. وبعدها أصبح الأحمق أحد رجال السياسة، كافئه المنتخبون بولاية ثانية مدتها أربع سنوات. في تلك الأثناء، كان الحاج قد مات بالفعل، كما تعلمون، وأصبح الإسكافي صديقًا للأحمق وشريكًا له.

انتقل الأحمق ليعيش في قصر منيف يُطلق عليه اسم «السكن» فوق تلة عالية، والتي تعد أكثر المواقع تميزًا في المدينة. ليحيا فيه حياة تخلو من المشاكل، إلا من تلك الضفادع التي كانت تزعجه وتتجمع حول قصره كل مساء، لتصيح بلا هوادة «كروك كروك، كروك، كروك، كروك......»

القصة الحادية عشر

القزم

«يجب ألا تُروى أحداث هذه القصة لطلبة الدراسات العليا الذين يدرسون الثقافة النخبوية والجماهيرية».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وجد «بونيفيس» معلمه واقفًا أمام الناقوس الزجاجي يتفحص القزم الموجود بداخله باهتمام بالغ.

- تعال! اقترب!

نادى عليه المعلم ليخبره بشيء ما دون أن يحول ناظريه عن الناقوس الزجاجي وما يحويه.

- ألا تعتقد أنه قد نما بعض الشيء منذ الأمس؟

إذا ما حكمنا على الأمر من خلال الهالات السوداء الموجودة حول عيني المعلم. فهذا ببساطة يخبرنا بأن المعلم ظل مستيقظًا طوال الليل. ولكن عينيه كانتا تلمعان أيضًا ببريق يشبه بريق عيني المحب القديم.

- انظر كيف تحرَّك قليًلا.

كان الانطباع الذي تكون عند «بونيفيس» عن هذا الإنسان الصغير - أو هذا الشيء الذي يشبه الإنسان – هو أنه كان مستلقيًا كما كان دومًا دون أن يطرأ عليه أي جديد. شفتاه كما هي، ويداه، وكيس الخصيتين الخاص به وقدماه جميعها كانت بارزة ويمكن تمييزها، على الرغم من أنها قد تشكلت بشكل جيد لكن هذا التشكيل أتى على نحو غير متناسق إذا ما تم مقارنته بما حولها من أيدي بشرية. هذا القزم الموجود داخل الناقوس ليس أكثر من كتلة لحمية دون ملامح.

همس «ألسيبياديس» بصوت طفل متحمس دون أن ينتظر إجابة «بونيفيس»:

- إنه يحقق معدلات نمو سريعة. هل تعتقد أنه قادر على رؤيتنا الآن؟

لم ينتظر إجابة «بونيفيس». أي ما كان ما سيقوله الأخير، سواء كان إيجابي أو غير ذلك، كان المعلم سيتجاهله بكل تأكيد.

ليس بعد أن حفر في صبيحة يوم الجمعة قبل الفجر تحت المشنقة بحثًا عن جذر «الماندريك»، وبعدما عثر عليه، أخذ يعمل الآن على حمايته عن طريق وضعه داخل ناقوس زجاجي. قام بكل ما هو ضروري كي يتسنى له الحصول على أعضاء قزم حي تعمل. هذه العملية أبعد ما تكون عن كونها سهلة من بدايتها وحتى نهايتها. فجذر «الماندريك» يجب أن يُقتلع من التربة بمنتهى الحرص. عادة ما يُستخدم في تلك العملية قفَّاز يتكون من طبقتين سميكتين مصنوعتين من جلد الخنزير؛ لأن جذر «الماندريك» قد يصبح خطيرًا عند اقتلاعه من التربة، لأنه ينتج بعض القطرات الزيتية السامة. يلجأ

البعض إلى استخدام الكلاب لاقتلاعه بأسنانها وعادة ما كان الكلب يعاني ميتة بشعة بعدها. أمَّا المعلم فقد كان يمتلك مهارة الاقتلاع والعناية الأساسية بالجذر منذ لحظة اقتلاعه. وكان يتمتع بحرص ودقة عالية كالمعتاد. قام بتغذية وسقي العشبة بالعسل واللبن وبدم ديك مذبوح حديثًا. وصنع لها فراشًا من التربة المأخوذة من تحت المقصلة، بعد أن قام بنقعها في السائل المنوي لشخص تم شنقه. وأضاف كذلك روث حصان يبلغ من العمر أربعين يومًا فقط. كانت إجراءات العناية بالعشبة مرهقة لكنها ذات نتائج أكيدة. وقد ساعدت «أليسبياديس» على استعادة العديد من الأقزام الخرس إلى الحياة مرة أخرى.

كان يتم توظيف هؤلاء الأقزام كنماذج مصغرة للخدم أو كبهلوانات في السيرك للتسلية. حياتهم القصيرة (فهؤلاء الأقزام يبقون على قيد الحياة لمدة لا تتجاوز الأربعة أشهر على أقصى تقدير) لا تنتقص شيئًا من قيمتهم، والتي يتم تقديرها بواسطة عدد مختار من المقربين الذين يسمح لهم المعلم بالحضور. على العكس من تلك الألعاب الميكانيكية على هيئة طيور ونحل وعازفين على العود والذين يصدرون أصواتًا أو يلعبون على أحبال مزدوجة لبعض الوقت (ولكن ليس بمهارة «فرانسيسكون دي ميلانو») ثم يتشقلبون في الهواء بعد دقائق قليلة من النشاط مثل عروسة ماريونت لا فائدة منها. فالأقزام «يعيشون» حياتهم حقًا من بدايتها وحتى نهايتها.

الحقيقة هي أن كل الأقزام حمقى، وأطرافهم غير مكتملة. فعلى سبيل المثال، تكون إحدى أذرعهم أو أقدامهم أقصر من الأخرى، مما يجعل أجسامهم تبدو غير جذابة. لا يمكن أن يتم مقارنة ميلادهم أو موتهم بحياة وموت البشر العاديين أو أي من الكائنات الحية الأخرى. فحقيقة كونهم مخلَّقين من جذر «الماندريك» الذي نبت من السائل المنوي لشخص انتهت حياته نهاية عنيفة، من هنا يمكن القول إن الأقزام هم في الحقيقة ذرية الموت. وفي حالتهم، قد نعترف بأن دور الإله «إيروس» إله الحب عند الإغريق قد تم تبنيه من قبل الإله «ثاناتوس» إله الموت. كما أن رحيلهم من هذا العالم هو شيء إنساني جدًا. عندما يستشعر القزم بأن يوم قيامته قد دنا، تصبح هذه الكائنات المطيعة بالفطرة مضطربة وغير مستقرة. ولا يستطيعون البقاء في مكان واحد.

ولكنهم يظلوا يجوبون المنزل وقد ارتسم على وجوههم غير المكتملة استياء واضح. ويفقدون القدرة على التكلم، ويطلقون أصواتًا غاضبة وحزينة في الوقت نفسه. أصواتهم هي شيء ما وسط بين النحيب والدمدمة. وفي وقت الغسق ربما يبدؤون في الخدش والضرب على زجاج النافذة مثل القطط أو مثل الكلب الذي يريد أن يذهب إلى الخارج ليتبول. أكثر الأمور التي اكتشفها «بونيفيس» غموضًا ورعبًا عن الأقزام هي أنها تخرج في الليل من المنزل وتختفي. أما أثناء النهار، عندما يبدو واضحًا أنهم مستنزفون، يبقون داخل المنزل. وقد يزحفون نحو ركن مظلم في المنزل، وينتحبون في هدوء وينتظرون مرة أخرى حلول الظلام.

تعلم «ألسيبياديز» أن من عاداتهم أن ينتظروا غروب الشمس، وهم يترنحون ويعرجون وبدون كلمة وداع، يختفون في عتمة الليل.

- أين يختفون؟ وإلى ماذا يتحولون؟ هناك شيء غامض في الأمر. وأنا أعتقد، يا عزيزي «ونيفيس» أن لغز الوقت لا بد وأن له حلًا آخر في حالتهم. فأوقاتهم ليست كأوقات البشر. ومع ذلك، فإن هذا

الكائن ما كان له أن يأتي للوجود بدون بذرة الإنسان، حتى ولو تم قذفها في حالة ألم وحرقة. فإن بذرة الرجل المحتضر تخصِّب رحم التربة. وحقيقة ميلاد «القزم» تدحض الوهم القائل إن الحياة تسير كخط مستقيم يسافر بعناد من بدايته لنهايته.

ولكن العكس تمامًا هو الصحيح! فالقزم قد وُلِد في النهاية بكل ما تحمله الكلمة من معنى. وهنا يكون القزم قد سخر من النكتة القاسية المفروضة علينا؛ وهي الاعتقاد السائد بأن الوقت يسير في اتجاه واحد وأن الشيخوخة لا رجعة فيها. هذا «الأومينو» أو «القزم» سوف يثبت صحة الفرضية المقابلة!

كان «بونيفيس» هو الشاهد المباشر والمذهول من هذا الكم من الهوس بهؤلاء الأقزام. لدرجة أن المعلم لم يذهب قط بعيدًا عن الجنين الموجود داخل الناقوس الزجاجي، مدعمًا غذائه بالتوت البري، وسمك السلور وزيت عشبة القديس «يوحنا».

كان «بونيفيس» في عامه السابع من التتلمذ على يد «ألسيبياديس» وعلى الرغم من مرور كل هذا الوقت، ما زال يذكر اليوم الذي تم قبوله فيه تلميذًا للمعلم. لم يكن الأمر سهًلا، على الرغم من أن عمه الذي يُعتبر، أحد أثرى النبلاء في المدينة، قد توسط له.

دعاه المعلم إلى منزله حيث معمله. كان «بونيفيس» قد بلغ بالفعل الثامنة عشرة وقد قرأ كتاب «خطاب عن كرامة الإنسان» ولكن هذا لم يكن بالشيء الكبير ولم يساعده كثيرًا كما تصور ولم يزد من ثقته بنفسه.

استمر اختبار المعلم لـ»بونيفيس» لمدة ثلاثة أيام متتالية. بالنسبة للأسئلة الأساسية؛ كانت تنصب على فكرة ضبط الوقت، وأساسيات المربع السحري، والرسم بالحبر الأحمر وذوبانه في الماء، وعن الطبيعة المزدوجة للنشادر، وترجمة التقويم في الأيام والعقود ووفقًا لمسار القمر. كانت أسئلته سريعة وواضحة ويتم إلقاؤها دون تردد. عندما طلب منه المعلم أن يطبق نظريات الرياضيات الفلكية على المشكلات الطبية الملموسة، على سبيل المثال، على الدور الذي تقوم به «الغدة الصعترية» والقلب اعتمادًا على تأثيرات الشمس، وطريقة عمل الرئتين المرتبطة بالزئبق، وطريقة عمل العين والمرارة اعتمادًا على كوكب «المريخ». كان «بونيفيس» في حاجة إلى التفكير لبعض الوقت وقد كافح من أجل تقديم الإجابات الصحيحة.

كان ينصت بحرص لتوضيحات «ألسيبياديس». وفي اليوم الأخير للامتحانات، تطرق الاختبار إلى العوالم الأكثر سرية، والأرواح النجمية التي كانت تسكن الأجرام السماوية، وتتحكم في الأرواح البشرية معهم ومن خلالهم.

وأرواح البناء التي تصنع سلاسل الطاقة، والأرواح المسجلة التي تركت ما قامت بتدوينه عن استخدام سلاسل الطاقة تلك للاستشارات في المستقبل، والتنبؤات والعلاج. قد يبقى «بونيفس» صامتًا لبعض الوقت، لكن خديه كانتا تشتعلان من شدة الحمرة كطفل صغير يتعلم حروف الهجاء. مضطرب ومرعوب ومتلهف لتلقي الإجابات الصحيحة من المعلم. والمعلم ترتسم السعادة على ملامحه بوضوح بسبب هذا التواصل. في نهاية الاختبار، أعلن المعلم أن المعرفة هي شيء غامض.

ففي أوقاتٍ تصبح متأكدًا من أنك تمتلك ناصيتها، وتشبعها بالكثير من الحشو في أوقات أخرى، وفي أوقات أخرى تصبح خائفًا بسبب عدم امتلاكها، وتقطر في الكلمات التي تستخدمها أو تصمت تمامًا.

لا يختلف الأمر كثيرًا عن عالم الموسيقى، ففي البداية تكون الأغنية مزدحمة بالنغمات، بينما فيما يلي تحصل النغمات على عمق أكبر من الوقفات التي تتخللها.

- من الغد ستصبح أبواب منزلي مفتوحة على مصراعيها لاستقبالك. سوف نعمل معًا! في أول الأمر ستكون الجهود المبذولة أكبر وأضخم والمتعة قد تكون أقل. لكن بمرور الوقت ستزداد المتعة. عندما تكون قد تمكنت بالفعل من بناء أسس قلعتك في السماء، ساعتها لن تصبح قادرًا على العيش خارجها مرة أخرى.

في الحقيقة، كان «ألسيبياديس» يصف مكونات حياته هو. ولكنه أثبت أن ما يفعله حقيقيًا لأبعد الحدود: على الرغم من التباين الواضح بين الشخصيتين، إلا أن «بونيفيس» قد نجح ولحد بعيد في إدارة سنوات التتلمذ السبع التي قضاها مع المعلم، من خلال تفانيه في العمل واهتمامه المستمر به؟ «لكي يملأ معبده بالكثير من المنحوتات وبالتناغم...» كما اعتاد معلمه أن يقول، من أجل أن «ينأى بجانبه عن غموض الحكمة».

على الرغم من المعرفة الفاضلة التي حصل عليها خلال الوقت الذي أمضياه معًا، فـ»بونيفيس» لم يفقد أيًا من فضوله الصبياني. فالوضوح الذي استخدمه المعلم كي يورطه في تجاربه كان يصيبه بالخوف والرعب حينًا أو كان يغمره بابتسامات لم يستطع السيطرة عليها. يعتمد الأمر كله على فكرة ما إذا تم التصديق على فرضياته أو بقيت غامضة كما هي.

- ما الذي تعتقده؟ كيف ترانا؟ ما هي الصورة التي ترسمها لنا؟ هل هي صور حقيقية؟ هل هي موجودة حقًا؟ هل أنا موجود؟

وأنا أقف جامدًا بجوار المعلم المتقوس الظهر الذي يحملق بشغف في الناقوس الزجاجي، في تلك اللحظة لم يستطع «بونيفيس» أن يكبح جماح شعوره بأنهم في هذه اللحظة قد سارا بالفعل في مفترق طرق وأن هناك خطرًا محدقًا يهددهم. تذكر «بونيفيس» شيئًا كان المعلم قد أخبره به في ساعة متأخرة من الليل، عندما قام تحت إشرافه بتحضير عدة قنينات من مرهم مصنوع من «بذر الينسون»، والبصل، وزيت الزيتون، والبقدونس المضاد للالتهابات وآلام الأذن:

- الآن تعلمت كيف تصنع هذا الدواء كتلميذ يجوب بحر المعرفة. أتمنى أنك برعايتي ومساعدتي البسيطة، ستتمكن يومًا ما من العبور للشاطئ الآخر. ولا أحد آخر إلا أنت بنفسك، يا «بونيفيس» الطيب، بكل مكتسباتك، إخلاصك وتفانيك وشجاعتك، ستصبح قادرًا على الوصول إلى الشاطئ المقابل للبحر المسمى «الوقت».

الآن وهو يراقب عن كثب المعلم «ألسيبياديس» وهو يتابع تتطور القزم بنوع من النشوة والسعادة، رأى «بونيفيس، أنه على النقيض مما قاله معلمه، لن يكون قادرًا على بلوغ الشاطئ الأخر للبحر المسمى بـ»الوقت» على الرغم من كل شيء.

- في حالتي يا «بونيفيس»، هناك تحدي ما هو الذي دفعني لأن أبتدع هذا القزم بصورة أكثر مثالية وأكثر إتقان عن بقية الأقزام الأخرى التي سبق وأنتجتها ألا وهي: الحقيقة. أردت أن أبتكر جسدًا كالقفاز وعقلًا يتوافق معه كما تتوافق اليد مع القفاز. أنت تعلم أننا عندما نفقد أجسامنا فإننا نرى، إذا ما تطورنا بشكل كافي في رحلتنا الأرضية، الجوانب النجمية لكل الظواهر، ومن خلال أحلامنا يمكننا حتى أن نؤثر على أفكار الأخرين. على الرغم، من أننا قد نجد أن أصعب شيء هو أن نتواصل جسديًا، كجسد مع جسد أخر، من خلال القزم، على الرغم...

- أنت تقصد من خلال «نفسه» الثانية؟

- بالضبط، لأن بهذه الطريقة سوف يدرك البريء الذي تم إعدامه أنه سيصبح مرة أخرى على وعي بالذبذبات والاهتزازات والتأثيرات الخاصة بالمسألة المادية.

- لكن، ألن يتضمن ذلك ردة فعل في الاتجاه المقابل أيضًا؟ القزم، أقصد الرجل المشنوق، قد يهتز ويؤثر على هذا العالم وعلينا!

- هذا على وجه الدقة هو ما آمل في تحقيقه!

قال «ألسيبياديس» وهو ينهض واقفًا؟ التمعت عيناه بنوع من العمق. تلك هي اللحظة التي ستظهر فيها الحقيقة.

- ألهذا السبب تبذل كل هذه الجهود المضنية كي تجعل هذا القزم يتحدث؟

- سوف يتحدث، سترى! وبصوته.. صوت «الكونت موريزيو بنيديتي» وسوف نكتشف حقيقة ما حدث بالفعل.

- ولكن، الجميع يعرف أنه قد أُعدِم بسبب ارتكابه لجريمة قتل.

تمتم «بونيفيس» بطريقة بدا منها بأنه غير مقتنع. وبأوامر من تم إعدامه؟ أنا أسألك؟ من الذي أمر بشنق «كونت بنديتي»؟ أنا عالم يا عزيزي «بونيفيس» ولستُ سياسيًا. أنا مهتم بالسيطرة على العمليات الكيميائية، وليس بالسيطرة على الناس. ولكنني لو كنت سياسيًا ما كنت لأحكم مستخدمًا كل هذه القسوة وعدم الرحمة تجاه أعدائي كما يفعل من هم في السلطة الآن.

- أسيادنا؟

اندفع «بونيفيس» في الرد، ولكنه لاحظ على الفور النفاق البادي في تواضعه.

- بالطبع، هم أسيادنا، فليكن الرب مع أي شخص يجرؤ على أن يجهر بالقول بشيء ضدهم. سوف يتم التعامل معه بأسلوب رفيع. وسوف يلتهمه الظلام دون أن يظهر له أثر. دون أن يُسمع له صوت، بدون ألم.

قالها «أليسيبياديس» دون أن يخفي شعوره بالاستهزاء والسخرية والاحتقار، أكمل قائلًا:

- وهذا الأمر يجد صدى جيدًا مع الناس لأنهم خائفون وسذج.

- ولكنهم شيدوا جامعة. وقام العديد من العلماء القادمين من «فلورنسا» بزيارة القصر، مثل: «بوليزيانو»، و»فيتشينو»، و»ميراندولا».

- أعرف. أعرف. كنت هناك استمعت لهم بمنتهى السعادة والسرور، وبشكل نقدي لاذع أيضًا. ولكن، يا صديقي الطيب، كل هذا الولع بالمحاضرات، وحفلات الاستقبال، والولائم، وما يُطلق عليهم اسم أسيادنا ليس لهم أي علاقة بالاستسلام، والذل، والخنوع الذي يعاني منه مواطنينا، ناهيك عن ابتذالهم. كان الكونت «بنديتي» واحدًا من القلائل الذين تجرؤوا على نقد الحكومة بصوتٍ عالٍ مستعرضًا الإهمال الحقيقي للمواطنين العاديين من قبل الحكومة، أنت تتفق معي أن الاحتفالات لا يمكنها أن تعوّض الحياة، ولكن يمكن استخدامها لصرف انتباه العامة بمنتهى الكفاءة. فمحاكمة «الكونت» بسبب قتله لأخيه و»أليساندرا دي برانا» كانت أحد سبل صرف الانتباه. منتهى التزوير، ولا يمكن لأحد أن يثنيني عن رأيي بأن ما حدث كان مناورة خبيثة للغاية من قبل الحكومة لكي تتخلص من أحد معارضيها.

أمسك «أليسباديس» بقلمه وبدأ يكتب حروفًا فوق جسد القزم. كان لون القلم أبيض ولكن الحروف كانت تُكتب بلون أحمر داكن كلون الدم. تعرَّف «بونيفيس» على الحروف التي كُتبت باللغة اللاتينية، والعبرية، والحروف اليونانية، لكن بقية الحروف كانت مجهولة تمامًا بالنسبة له.

حتى قبل أن يكوِّن السؤال في مخيلته. أجاب المعلم:

- هناك بعض الحروف المقتبسة من أبجدية «جلاجوليستية»، الشقيقة الصغرى للأبجدية «الجلاجوليستية» الدائرية التي تم تقديمها للرومان بواسطة الفيلسوف «قسطنطين» منذ عدة قرون بصحبة البقايا الأثرية للقديس «كليمنت» الروماني.

أول شخصين جعلاها معروفة كانا «أثناسيوس الأول» أمين المكتبة و»جودريتش» من «فليتري». هذه الحروف ما زالت تُستخدم في جزيرة «فجليا» في المحيط الأدرياتيكي، والتي يطلق عليها «السلافيين» اسم «كرك». وفي مدينة «زارا»، وعلى طول الطريق المؤدي إلى الساحل الأدرياتيكي.

أومأ «بونيفيس» برأسه، على الرغم من عدم قدرته على استيعاب هذه الهجمة من المعلومات الجديدة. فقد كان معتادًا على الإنصات بحرص لكل ما يقوله المعلم حتى يتذكره كله فيما بعد ويتمكن من الحصول على المزيد من التوضيحات في وقت لاحق من القواميس الموجودة في المكتبة.

- أضفتُ الأبجدية «جلاجوليستية» مع اللاتينية، واليونانية، والعبرية لكي أخفى كل العلوم بداخله.. العلوم والمعارف التي تتضمن أفكارًا نقية. أنا أرسم جذع الكلمة، وأغذيها بالحروف.

استطالت الفروع وتداخلت مع بعضها البعض ومع غيرها من جذوع الكلمات التي تكمل بعضها. ولهذا السبب استخدمت أبجدية مختلفة حتى يتمكن من تعلّم وتذكّر الشكل، والترتيب، والاستخدامات الخاصة بالحروف.. لكي يتكلم.. لهذا السبب أنا أستخدم قلمًا مصنوعًا من ريشة بجعة. أتعلم أن هناك سحر يمكنه أن يحوِّل البجعة إلى إنسان والعكس صحيح. الإله «زيوس» أغوى «ليدا» وهو في هيئة

بجعة.. واللون الأحمر هو عصير الشمندر الذي تم تكثيفه وغليه تسع مرات حتى يصبح دائمًا لا يمكن إزالته.

على الرغم من أن الحروف قد تمت كتابتها بخفة، إلا أن بشرة القزم قد تشربتها ببطء شديد. لكن الخطوط العريضة سوف تبقى مرئية لعشرة أيام أخرى. والقزم ما زال أخرسَ.

- معلمي، إنه لم يتحدث حتى الآن.

- كن صبورًا يا «بونيفيس». عندما تشير قرون الهلال إلى الاتجاه نفسه الذي كتبت فيه هذه الحروف، سيأتي الوقت الذي تسمع فيه صوته.

- أرجو أن تتفهم ارتباكي. هذا.. العمل.. غير متوقع بدرجة ما بالنسبة لي.

- اصمت!

قاطعه «ألسيباديس»، أضاف قائلًا:

- انظر كيف يتنفس!

تم وضع الشمعدان الذي انعكس ضوؤه على الناقوس الزجاجي المستقر على الطاولة. اضطر «بونيفيس» إلى تحريكه بعض الشيء إلى الداخل ليسقط الضوء على القزم الذي بدا كمثلث مظلم أكبر بكثير من الطاولة.

لقد نما هذا الطفل القبيح العفن بسرعة كبيرة. وأضاف نور الشموع للون وجه القزم الأصفر الشاحب المزيد من الاصفرار والشحوب. بدا الوجه منتفخًا ومتورمًا وكأن هذا القزم قد أتى من عالم آخر، ليس فقط بسبب تعبيراته الشمعية، ولكن أيضًا بسبب ملامحه الشاذة والمتباينة. فعلى سبيل المثال، كانت عينه اليسرى أكثر ارتفاعًا من عينه اليمنى. وخصل شعر هذا الكائن المتصلب كانت ذات لون أحمر ناري وكأنها قد زرعت على رأسه بصورة مصطنعة وليست خصل شعر طبيعية. وشفتاه كانتا ضخمة جدًا وناعمة.

شعر «بونيفيس» بأن الهواء حوله أصبح أكثر ثقًلا وتعفنًا كلما نظر إلى هذا الكائن، وكأنه في غرفة لم يتم تهويتها منذ وقت طويل. تحولت نظرته إلى صدر هذا الكائن الخالي من الشعر والذي يعلو ويهبط بأنفاس سريعة وصغيرة تطارد بعضها البعض وكأنها تتعافى من إجهاد شديد.

- دعنا نبعد الناقوس عنه. فهو بحاجة إلى المزيد من الهواء.

كان الناقوس الزجاجي يحتوي على فتحة صغيرة تسمح بتدفق الهواء إلى داخله. لكن «ألسيبياديس» كان متعجلًا ومن فرط عجلته أوشك على أن يسقط الناقوس الزجاجي عندما حاول أن يرفعه. فكّر «بونيفيس»: «مر وقت طويل منذ آخر مرة رأيت فيها المعلم سعيدًا».

- نعم.. ها هو.. أصبح بيننا.

علا صوت تنفس القزم شيئًا فشيئًا. فكان نصفه صوت ونصفه الآخر أصواتًا غير مفهومة.. «جررر.. جرررر... جررر». كانت تلك الأصوات الغريبة تخرج من بين شفتيه المتورمتين. تمكنا من التعرف على الخطوط العريضة المشوشة الخاصة بالإدغام أووو... بين نوبات الغرغرة.

- يمكنني أن أرى كل شيء وهو يحدث. «بونيفيس»! شظايا الأفكار التي كانت يومًا ما تنتمي للكونت «ماوريتسيو» بدأت تتشكل في رأسه. لقد لاحظت الانزعاج الذي بدا عليه. لا تتراجع! فلتسألني عن أكثر شيء أزعجك: «هل سيتحدث؟». حسنًا، أيها المحترم «بونيفيس» (هل يحمل صوته نبرة استهزاء وسخرية؟) - فعقولنا تأتي من عند الرب وعلينا أن نثق بهم. هناك سبب ما وراء وجود كل تلك الأشياء في هذا العالم. فالبوصلة على سبيل المثال موجودة كي تخبرنا أين نحن وإلى أين نحن ذاهبون؟ والبارود موجود ليمكننا من قتل الناس من مسافة بعيدة. فالناس الذي يحملون فوق أعناقهم رؤوس الكلاب والأمازونيات لا يخبروننا فقط عن حقيقتهم، بل وعن حقيقتنا نحن أيضًا.

كان «بونيفيس» ينصت إلى حديث معلمه الجذل، وارتعاشة مليئة بالحيرة، والقلق، والارتباك تنتابه.

- والليلة سيحصل على اسمه: «ماوريتسيو». (نطقاها معًا: المعلم و»بونيفيس» في وقت واحد). سوف نخاطبه وكأنه قد وُلد من جديد. لقد أعدنا له حياته من جديد، «بونيفيس»! لقد بعثنا «كونت ماوريتسيو» من جديد!

كانت الأقزام السابقة يتم تمييزها عن بعضها البعض بالأرقام بدلًا من الأسماء. بالنسبة «لبونيفيس»، بدت تلك الأسماء الرقمية أكثر جمالًا وملاءمة لأقدارهم الحزينة: (الأول، الثاني، الثالث....) وكان القزم الحالي هو تاسعهم وكان سيُمنح اسم «نونو» – ويعني التاسع - إن لم تكن نوايا وتوقعات المعلم وكذلك معنى وجوده، مختلفة.

كان رأيه في قضية «الكونت ماوريتسيو بنديتي» هو نفسه كرأي الغالبية العظمى من مواطني الجمهورية: إنها جريمة قتل ذات دوافع سياسية. ولكن، لكي نوضح الأمر صراحة - أو حتى لنهمس بالحقيقة فيما بيننا - يتطلب هذا الأمر قدرًا كبيرًا من الشجاعة، لأن الجواسيس ينتشرون في كل مكان والعقاب ينزل سريعًا وبصمت. من المعروف أن عائلة «بنديتي» كانت عائلة كبيرة وعريقة لعقود وقليل من العائلات يمكنهم مضاهاتهم في النبل والثروة. «برناندو» والد «ماوريتسيو» وأخيه الأصغر «جاكوب» كان ولسنوات عديدة، حتى وفاته، عضوًا في مجلس الستة، وهو يُعد أعلى سلطة تحكم في الجمهورية.

كان من المتوقع أن ابنه» ماوريتسيو» سيحل محله في المجلس. ولكن، هذا لم يحدث. على الأقل ليس في التو. ذلك لأن الإعلان الرسمي العام قد أُعلن بنفاق ومكر، وقد يذهب البعض إلى القول بخبث ودهاء إن «الكونت ماوريتسيو» يجب أن يخضع للتحقيق والفحص قبيل اختياره عضوًا في مجلس الستة». تورط «الكونت» في عددٍ من الأحداث العامة وقيل إن كل هذا يؤكد على طبيعته الفظة، والعنيفة، وافتقاره إلى الحظوة والمكانة التي يجب أن تتوافر في كل من يتقدم لشغل هذا المنصب الرفيع والمسؤول.

وفي الواقع، كان «ماوريتسيو» يفتقر حقيقة للنبل الداخلي الذي كان يتمتع به أبوه، وكان يميل إلى التسبب في المشاجرات والمضايقات والمشاحنات، ولم يكن يماثل عدد كبير من الشباب في هذه المدينة. لقد كانوا يحكمون بواسطة العنصر الناري، الغضب، الساخن والجاف.. ثمار شبابهم المتعجل. فوفقًا لما رواه المعلم، فإن غضب وعصبية «ماوريتسيو» تم استخدامها واستغلالها من قبل أعدائه الأقوياء ومعارضيه من أجل الإضرار به وتدميره.

لثلاث سنوات، ظل «الكونت» متزوجًا من أجمل امرأة بالمدينة. وذات مرة، حظي «بونيفيس» بفرصة نادرة لرؤية «أليساندرا دي برانا» - والتي صارت فيما بعد «الكونتيسة بنديتي» - وهي تمر في الشارع. كانت تتمتع بجمال نادر لدرجة أن أي شخص في موقفه قد يُصاب بالصدمة والذهول من جاذبيتها وروعتها.

كانت تكبره بخمس أو ست سنوات، والذي كان يعتبر فارق كبير في السن على الرغم من أن «بونيفيس» كان قد بلغ بالفعل سن الرشد، لكن جمالها الطاغي وحسنها البديع مر من خلاله. وكأن الزمن لا يؤثر فيه، كجمال «هيلين» أميرة طروادة أو «سيمونيتا فسبوتشي» إحدى أجمل نساء عصر النهضة.

لقد استحقت عن جدارة الاسم الذي كانت معروفة به في أرجاء المدينة: الجميلة. فشعرها الجامح الأحمر، والمزين بإكليل من اللؤلؤ، جعل بشرتها ناصعة البياض أكثر بياضًا مقارنة باللؤلؤ. النساء والفتيات في المدينة لم يدخرن جهدًا ولم تنقصهن الحيلة في محاولة الوصول إلى هذا الشحوب ولم يفلحن.

لم يعرف «بونيفيس» أن الجزء الأكبر من دخل المعلم يأتي من بيعه لمبيضات البشرة للسيدات. لكن في حالة «أليساندرا دي برانا»، فإن شحوبها الرقيق وخصل شعرها الحمراء النارية كانت هبة من الطبيعة ومن الرب. وأن المعجزة الثالثة للجمال التي كشف عنها النقاب للرائي المتيم (المحرج بسبب إعجابه غير المخفي) كان متجسدًا في عينيها اللوزيتين ذات اللون البني الفاتح. عيناها قد توصفان بالحزينة لولا هذا الضحك والفرح والمرح الذي يرقص بهما والذي ينبع من عمق مخفي. وجرأتهما وتفتحهما وانطلاقتهما، حتى نظراتها الثاقبة زادت من حيرة «بونيفيس» وارتباكه.

كان «بونيفيس» يستمع كطفل صغير للقصص التي تُروى في المدينة عن «الجميلة» وعن جمالها الخارق، وعن غنائها الرائع والمدهش ولعبها على آلة الفلوت. قيل أيضًا إنها كانت تنظم الشعر وتهديه للحب وتزينه بأناقة رقيقة.

وكذلك كان إخلاصها «للكونت ماوريتسيو بنديتي»، على الرغم من كونه رجلًا جلفًا وخشنًا، وغير مهندم وبائسًا، ويتسبب في الإزعاج للجميع. يمكن سماع السيدات العجائز وهن يتحدثن عنهما ويؤكدن أنها قد أُجبرت على الزواج منه من أجل ثروته.

فعلى الرغم من أن «أليساندرا دي برنا» تنحدر من إحدى أعرق العائلات النبيلة في المدينة، فالفتاة كانت فقيرة، وكانت هذه هي فرصتها الأخيرة لكي تحصل على بيت غني. ولكن، استمرت النميمة في التعجب من تصرف والد «ماوريتسيو» والسر وراء عدم اختيارها زوجة لشقيق «ماوريتسيو»

الأصغر «الكونت جيكوب»، الذي كان، على النقيض من أخيه، مرحًا ولعوبًا، ومحبًا للفن، وعلى كل الأحوال كان سيكون أكثر ملائمة من أخيه لها ويصبح هو زوج «أليساندرا» الجميلة.

الإجابة الواضحة هي أن «ماوريتسيو» - باعتباره الابن البكر - كان سيرث ثروة عائلة «بنديتي». وكان يخطط منذ وقت طويل لكي تصبح تلك الفتاة الجميلة عريقة النسب أم أبنائه. في تلك المدينة، التي كانت تفتخر بروحها الحرة وروح الفكاهة والإثارة، أُمرت كل النساء بعدم ارتداء أي لون بخلاف اللون الأسود بعد مرور ست سنوات من الزواج. كان يُسمح بارتداء الياقة العالية المنفوشة والأكمام العريضة بعد مرور ١٢ عامًا أخرى على الزواج قبل أن تختفي هذه العادة هي الأخرى.

- نحن لا نورط أنفسنا في انتهاك المحارم، إن كان هذا هو ما يقلقك يا «بونيفيس». نحن لم نبعث رجلًا ميتًا لمجرد أننا نريد القيام بهذا، بل لكي نصحح الخطأ الذي عانى منه. إن الرب يحب هؤلاء الذين يعملون بجد واجتهاد، هؤلاء الذين يكافحون من أجل أن ينجزوا مهمة ما، وبعض الواجبات في حياتهم، لهؤلاء الذين فشلوا بسلبية في تحريك وقلقلة الفكر المعتاد الذي يرى أن حضور الإنسان للصلوات والدروس في الكنيسة هو مهمتهم الوحيدة. «الكونت ماوريتسيو»، إن تمكننا من إعادته للحياة، قد لا يتمتع بنفس الهيئة الجسدية التي كان عليها قبل إعدامه ولكنه قد يكون قادرًا على اطلاعنا على الحقيقة التي مُنع من قولها أمام هؤلاء القضاة المدعين. كتب المبجل «بيتشو» في مرة من المرات أن «الرب قد منح الإنسان القدرة على الاختيار وكذلك الهيئة التي سيعيش بها على الأرض». إن اختار أن يعيش كنبات، فسيصبح نباتًا وإن اختار أن يعيش على هيئة كلب فسوف يصبح كلبًا، ولكنه إن اختار أن يكون إنسانًا فهو قد اختار السلوك الذي سيحيا به». وعلى النقيض من الجسد البشري الطبيعي، فجسد هذا القزم فانٍ. وحياته قصيرة للغاية، لكنها ستمكننا من إحياء روح «الكونت ماوريتسيو» لتخبرنا فيما أثق بشدة بأنه الحقيقة، وأنه كان بريئًا!

على الرغم من أن الجمهورية كانت معتادة على الأحداث المظلمة والشنيعة، إلا أن خبر تلك الجريمة الشنعاء قد تم تلقيه بخوف ورعب. جميلة الجميلات الكريمة السمحة «أليساندرا دي برانا» والكونت النبيل «جاكوب» تم ذبحهما بمنتهى القسوة!

تم استدعاء المعلم «ألسيبياديس» على الفور إلى مسرح الجريمة، لما يتمتع به من احترام وتقدير كعالم كبير في الطب، ولديه معرفة «بأبقراط»، و«جالين» و«أرسطو» وكل المعلمين المنحدرين من مدرسة «ساليرنو مونبلييه». تلك المعرفة الواسعة والغزيرة التي يتمتع بها ويطبقها على مرضاه بنجاح.

عند وصول المعلم «ألسبياديس»، كانت السيدة الجميلة قد لفظت بالفعل أنفاسها الأخيرة، لكن «الكونت جاكوب» كان لا يزال على قيد الحياة، أو كان بالأحرى في النزع الأخير، حيث بدأت حيويته في التلاشي وضربات قلبه أصبحت تقريبًا غير مسموعة. كان نبضه يتلاشى. وضع «بونيفيس» أربعة أصابع على الوريد، شعر بالنبض بصورة بسيطة تحت الصباع الأول، وبعدها أصبح أكثر وضوحًا تحت الإصبع الثاني، وأكثر تحت الإصبع الثالث، ولكنه خفت تمامًا تحت الأصبع الرابع.

هذا النوع من النبض يقر بما لا يدع مجال للشك أن النتيجة مميتة. مشهد مرعب. والجرح كان غائرًا في الجزء العلوي من الرقبة تحديدًا تحت الذقن حيث قُطعت الأوعية الدموية الموجودة بالرقبة وكذلك الأوتار مما يؤكد أن الذي قام بالجريمة هو قاتل محترف.

ما زال الدم يتدفق بغزارة من الجرح. كانت عينا الرجل مفتوحتين. وكان يحاول أن يقول شيئًا ما، ولكن ما خرج من فمه، كان غير واضح وغير مفهوم وكأنما قطعة من القماش قد حُشرت في فمه. انحنيت فوقه وتمكنت بصعوبة بالغة من فهم التالي: «هناك أمل في الخلاص». نعم، «بونيفيس» الطيب، هذا بالضبط ما قاله: «هناك أمل في الخلاص». كانت هذه هي الكلمات الأخيرة التي نطق بها والتي أتبعها بصوت غرغرة آخر نفس ثم وفاته.

تم على الفور توجيه الاتهام «للكونت ماوريتسيو» بارتكاب جريمة قتل مزدوجة بدافع الغيرة. وقد تمت محاكمته بمنتهى السرعة وقد أتى التصديق على الحكم متسرعًا هو الآخر على النحو نفسه: الإعدام شنقًا. لم تُقبل الاستئنافات التي تم تقديمها من قبل أصدقائه من أجل إطالة مدة المحاكمة حتى يتسنى لهم جمع الأدلة المضادة التي قد تثبت براءة موكلهم من ارتكاب تلك الجريمة البشعة.

- كل هذا قد تم بسرعة عندما كانت هناك أدلة واضحة ومجال واسع للشك، عزيزي «ونيفيس» الطيب! لماذا تم قتل «كونت جاكوب» بهذا الأسلوب البشع وليس في مبارزة؟ ولماذا تم قتل «أليساندرا دي برانا» هكذا؟ كل ما أعرفه أن «الكونت ماوريتسيو» قد يصرخ في وجه امرأة، وحتى قد يهينها بشدة، لكن من المستحيل أن يقتل واحدة بدم بارد وبمثل هذه الطريقة البشعة.

بعد مرور أيام قليلة على مقتل «الكونت جاكوب» والجميلة «أليساندرا»، أُرسل «الكونت ماوريتسيو بنديتي» إلى المشنقة وقد اشتعلت عيناه بالغيظ وتدفقت اللعنات من شفتيه: «سوف أعود، أيها الأوغاد! وسوف أنتقم!». صاح «الكونت» قبل أن يتم شنقه.

- رحل عن هذا العالم وهو في حالة غضب عارم وثائر.

لم يعد القزم في حاجة إلى حماية الناقوس الزجاجي. وسرعان ما بدأ يتحرك معتمدًا على نفسه، مترنحًا في خطاه مثله مثل بقية الأقزام السابقين. لأنه كان أكبر في الحجم، وأثقل في الوزن وأبطأ في الخطى.

كان يترنح بشكل أخرق تحت عناية ورعاية «ألسيبياديس» الذي صاحب خطاه في جميع أرجاء المنزل. يتأرجح من قدمه الأطول إلى قدمه الأقصر، مغمغمًا، وقد تصاحب خطواته المترنحة وقفات في بعض الأحيان، سواء أمام السرير الحديدي الكبير أو في المكتبة بكل ما تحويه من مخطوطات قديمة أو على الرفوف التي تحمل أنابيب الاختبار الزجاجية.

لدرجة أنه حاول ذا ت مرة أن يلتقط إحدى الأنابيب الزجاجية من على الرف ولحسن الحظ أنها كانت فارغة، ولكنها انزلقت من بين أصابعه وسقطت على الأرض وتكسرت إلى ألف قطعة.

أسرع المعلم لكي يلملم الشظايا المكسرة. سأل:

- هل أنت بخير، «ماوريتسيو»؟ هل أذيت نفسك؟ ماذا تقول؟.. «أكوا»!

صرخ المعلم.

- «بونيفيس» لقد قال «أكوا «! هو يريد بعض الماء. هو يفهم كل شيء!

وبدأ المعلم يقفز كالطفل الصغير.

- من الآن فصاعدًا، سوف يجلس «ماوريتسيو» على الطاولة معنا!

أعلنها المعلم رسميًا بعد أن لملم نفسه مرة ثانية، وسوف نتشارك طعامنا معًا.

وجد «بونيفيس» هذا الأمر سخيفًا لأن المعلم عادة ما كان ينشغل بعمله، ويفوت بعض الوجبات بسبب انهماكه في العمل، وحتى عندما يتذكر، فهو في الغالب يتناول كسرة خبز ويضع عليها بعض البصل بعد أن يقوم بغسله ببعض النبيذ المخفف.

ولكنه هذه المرة قام بتحضير المائدة بكبرياء وفخر واضعًا المفرش القماش الفلمنكي المطرّز وأجود أدوات المائدة الفضية على المائدة. بدأت الوجبة بتناول بعض من حساء الخضروات المجففة التي التهمها القزم بشهية كبيرة وباستمتاع. الأدهى من ذلك أنه كان يغمغم عندما انتهى من كامل طعامه.

كان المعلم فرحًا للغاية! كل كلمة استطاع القزم أن يخرجها من فمه وهو يلتهم الأرنب في صلصة الثوم والملفوف مع الثوم قابلتها موجة حارة من السعادة والإثارة من ناحية المعلم. على الرغم من نطقه غير الواضح للكلمات، فـ»بونيفيس» كان مندهشًا من الدقة التي كان القزم يخمن بها معاني الكلمات وكأنه كان يعرفها من قبل.

في نهاية الوجبة، صب «ألسيبياديس» بعض الخمر ذي التأثير الخفيف. ملأ المعلم كأسه وكأس «بونيفيس» الفضي حتى حافتيهما بينما ملأ كأس القزم الذي كان يناديه باسم «الكونت ماوريتسيو» أو «ماوريتسيو» مباشرة حتى منتصفه فقط. والتي تجرعها في مرة واحدة. طلب القزم من المعلم أن يصب له بعضًا من شراب خمر «البرجاندي الأحمر» وقد نطق الكلمات بوضوح استثنائي. دار الحوار على المائدة حول شهية القزم الكبيرة والكلمات التي كان يغمغم بها أثناء تناول الطعام والتي لم تخفق ولو لمرة في إثارة دهشة وسعادة المعلم وإعجابه الكبير بالقزم.

استمر العشاء حتى وقت متأخر من الليل، على الرغم من أن «بونيفيس» قد شهد الأمر كله على أنه لا يمكن أن يكون حقيقيًا. قام كلاهما: القزم «ماوريتسيو»، والمعلم «السبياديس» معًا، بتوديع «بونيفيس» حتى باب المنزل وتمنيا له الخير.

وبينما هو سائر عبر شوارع المدينة الضيقة متوجهًا نحو منزل والديه. لم يستطع «بونيفيس» أن يتخلص من هواجسه وأنه ما كان له أن يترك المعلم وحده هذه الليلة مع هذا الكائن الخطير الذي ذكّره بشدة بالكونت «بنديتي» الحقيقي، القاسي والقبيح في نوبات غضبه التي لا يمكن السيطرة عليها.

كانت شعائر غموض ما بعد الوفاة الخاصة بالأقزام تحوم كسحابة مظلمة فوق رأس المعلم في أفكار «بونيفيس» المضطربة.

«ما الذي تنتظره؟ عد على الفور!». أمر «بونيفيس» نفسه.

عندما وصل «بونيفيس» إلى منزل المعلم، كان لاهثا ويشعر بالذعر. وجد الباب الأمامي للمنزل مفتوحًا على مصراعيه وأصوات أنين تأتي من ناحية حجرة الطعام. وبين الأطباق المبعثرة، والأكواب وبقايا الطعام، رقد المعلم «ألسيبياديس» ملتفًا حول نفسه على الأرض، مطعونًا في الصدر بخنجر يشبه الخنجر الذي استخدموه في تشريح الأرنب.

- هذا «الماوريتسيو» كان غلطة.. لم يكن طبيعيًا... العملية... كانت فكرة سيئة...

قام «بونيفيس» بتصوير «الكونت إكس» وهو يختفي في الظلام، هذا الكائن الشرير قادر على أن يرتكب أية جريمة. يعرج بإحدى قدميه في الحارات المظلمة على طول الطريق المؤدي إلى بوابات المدينة ومنها إلى الخارج متجهًا إلى مكان لا يعلمه إلا الرب.

- أكثر الأشياء التي تطلعت إليها.. هي أن أعيده.. لكي أختبر الوقت... لقد تركته يهرب... إلى الظلام...

- لا تقلق يا معلمي، كل شيء سيكون على ما يرام. فقط لا تجهد نفسك. كل شيء سيكون على ما يرام.

-أن تعود إلى الرب.. والمقاييس القديمة... المتعثر بلوغها بالنسبة للبشر.. الوقت....

بعد أن وضع بحرص الوسادة المصنوعة من الحرير تحت رأس الرجل المجروح، لم يعلم «بونيفيس» ولم يكن ليعلم أنه بعد مرور عدة قرون أخرى، سيقوم الخيميائي «راينر ماريا» سوف يغني بالكلمات نفسها تحت سلسلة التزامن غير المرئية بالنسبة للعين البشرية.

القصة الثانية عشر

قصة خيالية تلقائية

«يجب ألا تروى أحداث هذه القصة الخيالية على الناس أثناء قصهم لأظفار يدهم اليمنى».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

«لا شك في أن المعجز موجود في كل مكان.

أليس عدم غرقك أثناء الاستحمام في حد ذاته معجزة؟». «بيكاسو»

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في الربيع كان «بروكوبييف» يسير دومًا نحو جنوب المدينة حيث لا تنمو المباني هناك بوتيرة أسرع من الأشجار، رافعًا ناظريه نحو الجبال بانتظام. وأمام خضرة الجبال وروعتها، لا يمكن للبنايات الوردية العالية والمنشأة حديثًا سوى أن تجثو على ركبتيها احترامًا وتقديرًا لروعة هذا الجمال.

وعلى الرغم من أنه ليس غريبًا على «بروكوبييف» الإعجاب بالتصميم الخارجي والداخلي للمعمار إلا أنه كان فوق كل شيء وقبل كل شيء «هربوفيل» (هو الشخص الذي ينجذب جنسيًا إلى شتى أنواع النباتات. يشمل ذلك الانجذاب: النباتات والسراخس والأشجار والنباتات المزهرة... إلخ).

لا عجب في ذلك، لأن كل البيوت التي عاش فيها «بروكوبييف»، منذ طفولته وحتى اليوم، كانت تحتوي على حدائق واسعة. كبر «بروكوبييف» وترعرع بين أشجار التفاح، والطماطم، والورود، بالإضافة إلى زوج من أشجار «البتولا» (كانت شجرة البتولا المفضلة دومًا لديه.) حيث ترتبط الظلال المرتعشة للأشجار بممارسته لرياضة تنس الطاولة.

كان»بروكوبييف» يلعب تنس الطاولة لصالح فريقه «رابوتنشكي» يومي الثلاثاء والجمعة من كل أسبوع، من الساعة الثانية والنصف وحتى الخامسة. وكان دومًا يسير عبر المنتزه أثناء ذهابه إلى الصالة الرياضية وأثناء عودته منها.

هذا المنتزه يُعتبر أحد أجمل الأماكن في «البلقان»، لأنه يعج بالعديد من أشجار الحور، والبلوط، والصنوبر، والطقسوسية. في بعض الأحيان، كان يتوقف ليستريح على أحد المقاعد ويقرأ.

صدق أو لا تصدق، كان «بروكوبييف» من وقت لآخر يضع كتابًا أو كتابين داخل حقيبة ظهره وهو ذاهب إلى التمرين ومعه مضرب الكرة، والكرات البيضاء، والفوطة ومجموعة من الملابس التي قد يحتاج إليها إذا ما أراد تغيير ملابسه بعد التمرين.

كان يبدو لاهثًا ومحمر الوجه بعد انتهاء التمرين من فرط ما بذله من مجهود، وقد خارت قواه لكن عقله ما زال يتمتع بكامل صفائه وفضوله مما يمكنه من التركيز في الكتاب الذي يقرؤه.

هناك في المنتزه، وعلى المقعد، كانت أفكاره تتولد مع صوت زقزقة الطيور. كان يقرأ بنهم حتى حلول الظلام، والذي كان يطول لساعة أو ساعة ونصف في الخريف أكثر من الشتاء الذي يتسلل فيه الظلام بسرعة لدرجة أنه كان لا يستطع أن يقرأ سوى بضع صفحات قليلة.

لا توجد جلسات تدريب منتظمة في الصيف، لكن «بروكوبييف» كان بالفعل قد اعتاد قضاء فترات الظهيرة مع كتابه داخل منتزه المدينة. وفي بعض الأحيان، كان يمر من أمامه وهو جالس في المنتزه زوج من العشاق وقد ذابا معًا في عناق حار متبادل. أو مدخِّن حزين ووحيد حاله لا يقل مرارة عن الدخان الذي يستنشقه. لكن «بروكوبييف» كان ينظر فقط إلى المارة دون أن يعيرهم اهتمامًا، ويستأنف القراءة بحماس.

في وقت لاحق، كان يكتب: «في الغسق. داخل المنتزه، كان هناك ولد متوتر ومرتبك لم يكن يعرف أي طريق يسلك، ولكن ليس بسبب فتاة ما (للعلم أن «بروكوبييف» لم يقبِّل فتاة حتى ذلك الحين)، ربما بسبب «راسكولينكوف» (بطل رواية «الجريمة والعقاب» للمبدع دوستوفيسكي) الذي قام بتقسيم دماغه لعدة أجزاء، كل جزء منها ينبض على حدا كالمجنون. وقد رتب الأحاسيس الغامضة والأفكار بعضها فوق بعض». أو ربما بسبب المنتزه، أو بسبب تلك الغابة الجميلة ذات الأفنان والأوراق الرائعة. سقط صريعًا في هوى الكتب وأحلام اليقظة، كما يحدث للإنسان عندما يقع في الحب لأول مرة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

مرة أخرى، كما ذكرت من قبل، كان «بروكوبييف» يفضِّل شجرة «البتولا» أكثر من أي شجرة أخرى. كان والده - الذي سيداهمه المرض سريعًا ويموت ولكنه ما زال حتى اللحظة وسيمًا ومفعمًا بالسحر والكبرياء وهو ما مكنه من تكوين علاقات صداقة طويلة وحميمة وعداوات خطيرة على حد سواء - قد أهداه أحد شتلات شجرة «البتولا» في عيد ميلاده.

قام والده بزراعتها في الحديقة بجوار نافذة حجرته. تصوَّر «بروكوبييف» ذات مرة أن تلك الهدية التي أهداها له والده الوسيم كانت هديه غير عادية وأنه بصورة أو بأخرى سيربط تطور مستقبله البدني والروحاني، بصورة مباشرة بنمو «البتولا». لذلك كان «بروكوبييف» يعتني بها جيدًا ويعطيها كامل انتباهه. بعد مرور عدة سنوات، عندما كبر كليهما (بروكوبييف والشجرة)، كتب «بروكوبييف» أولى قصائده وأهداها لشجرة «البتولا» قائلًا:

«تهمس الشجرة ببطء

وهي تقف بجوار جدران

حجرتي

عام بعد عام

ينمو سلامها

وجذعها

مثل التربة

أتذكر كيف اعتدت احتضانها

بيدي الصغيرة وأنا طفل

اليوم صرنا أكبر

والشجرة تتحدث معي

أقل وأقل

ويداي ما عادتا منذ ذلك الحين

قادرتين على معانقة قربها».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ثم عرضت عليه إحدى الفتيات أن يربطها بواسطة سلسلة مصنوعة من المطاط المرن، يتم لفها حول رقبة الفتاة. في بادئ الأمر، شعر بقليل من الخجل فيما يتعلق بوضع السلسلة حول عنقها، على الرغم من أنها قد أحنت رأسها له بخضوع حتى يتمكن من ربط السلسلة على هيئة عقدة من الخلف. استحوذ عليه للحظة شعور بالحرارة في صدره وشعر وكأن على صدره صخرة هائلة.

شعر بأنه يقوم بشيء قذر، ولكن في الوقت نفسه، شعر بأنه قد أحرز نصرًا وأنه أمر ضروري.

تنزها معًا وهي مربوطة إليه. توقفا من آن لآخر لكي يريها لأصدقائه، ثم أخذها بعد ذلك بعيدًا برشاقة، وبخطى مسرعة. الخطوات السريعة نفسها التي كان يستخدمها عندما هبط من فوق جبل «فوندو».

تقافزت الفتاة بجانبه معه دون أن تبدي أية مقاومة. طوال الطريق المؤدي إلى الغرفة العلوية التي كان يأخذ فيها كل أصدقائه حبيباتهم. كان «بروكوبييف» هو الوحيد بين أصدقائه الذي لم يمارس الجنس مع فتاة حتى الآن. لكن في المساء، على الرغم من أن الفتاة كانت كريمة ومطيعة، تمنى «بروكوبييف» أن يترك المكان في اللحظة التي فتح فيها باب الغرفة العلوية. حدَّق في الضوء الأصفر الذي أتى من اللمبة المتدلية من السقف المنخفض. تلوَّى دون أن يتحرك من مكانه عندما خلعت الفتاة فستانها وناولته إياه. كانت الفتاة تتصرف كحيوان مروض. نزعت حمالة الصدر وسروالها الداخلي برقة ورفق، ليتلقفهما «بروكوبييف» منها بيديه المتعرقة المرتخية. بعدها، التفت حوله بسرعة وبصورة غير متوقعة، قرر أن يهرب بسرعة من المكان ويوصد الباب وراءه على الفتاة المطيعة العارية ويحبسها بالداخل.

في تلك الليلة، رأى في الحلم رجلًا عجوزًا طويلًا يرتدي سترة حمراء أرجوانية. كان يغمغم بشيء ما. كان الوقت في الحلم هو أحد أيام الخريف المشمسة وكان الرجل العجوز يجلس على صخرة

جبلية تعرف عليها «بروكوبييف» جيدًا عندما رآها في الحقيقة بعد مرور عدة سنوات أثناء إقامته في فندق» موليكا».

- من فضلك؟

قالها «بروكوبييف» مخاطبًا الرجل العجوز في حلمه، لكن الرجل العجوز لم يلتفت إليه أو حتى يثبت وجوده بكلمة، ولكنه استمر في تمتمته. حاول «بروكوبييف» أن يفهم ما الذي يتمتم به الرجل العجوز، ولكنه لم يتمكن سوى من سماع بعض الكلمات غير المكتملة التي كان يتكرر بها المقطع الصوتي «كوشلي»... «شافي»... «رشوجل»... «هيشكو».. وكأن الرجل كان يرسل همهماته للجبل فترتد إليه على هيئة صدى صوت.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بعد ذلك بوقت قصير، بدأ «بروكوبييف» في عزف أغاني إحدى فرق الـ»روك أند رول» في البيت على البيانو ماركة «بتروف» الخاص به. استبدل دروسه الموسيقية بمحاولات محاكاة النغمات الموسيقية العصرية. وفي خلال وقت قصير، تمكن من تكوين فرقة بالحي وأطلق عليها اسم «هوجار» أو «الفايكينج» أو شيء من هذا القبيل. كان «بروكوبييف»، وأفراد فرقته يعزفون في الحفلات الراقصة التي تُقام بالمدارس الثانوية. بعد ذلك، ترك الفرقة ليدرس الآدب المقارن في مدينة بلجراد عاصمة صربيا، أو كما اعتادوا أن يطلقوا عليها اسم «الأدب العالمي».

وفي الوقت نفسه، كان مستمرًا في عزف أغنية «إيفرجرين» لـ»باربرا سترايسند» في بار يُسمى «توبشيدريسكي شتيمونج» حيث تحييه نساء الليل بصوت يشبه مواء القطط.

كان «بروكوبييف» يعيش في حجرة مستأجرة في شقة ملك لعائلة «جاليتش» في شارع يُسمى «كتائب البروليتاريا» وهو متفرع من شارع «متحف تيسلا».

اصطفت بالشارع الأشجار التي تغنَّى بها «أرسين داديتش» في أغنيته الشهيرة «لا تعطِ شيئًا لإينس» Ne daj se Ines. كانت عائلة «جاليتش» تمتلك بيانو تم الحفاظ عليه بصورة جيدة. وكان المنزل يزوره بانتظام أصدقاء ابنهم «فالدا» في المدرسة الثانوية والذين أقام معهم «بروكوبييف» علاقات صداقة وطيدة منذ أول لقاء جمعهم ببعض.

انضم اثنان من أصدقاء «فالدا» لفرقته وفتى آخر ذو شعر أسود من الحي نفسه. انضم إليهم هو الآخر ضاربًا للطبل. ومن رحم بدروم مجمع الشقق الذي يقطن به، وولدت فرقتهم الجديدة التي أطلقوا عليها اسم «صوت الشارع».

في البداية، كان أعضاء الفرقة يعزفون على آلات مستعارة من بعض الصبية الأثرياء المدللين الذين يمتلكونها لكن لا يجيدون العزف عليها. ما زال «بروكوبييف» يتذكر لوحة المفاتيح ماركة «فارفيسا» التي استعارها من أجل أول حفل موسيقي له (أقيمت حفلاتهم في المدارس الثانوية والساحات العامة).

لاحظ «بروكوبييف» وأعضاء فرقته الوليدة أن الأمور لن تسير على ما يرام ما لم يمتلكوا آلاتهم الخاصة بهم، لذا كانوا يذهبون في عطلة نهاية كل أسبوع لسوق «زيمون» ليبيعوا الجينز المهرب من «تريستي» بإيطاليا، واللمبات القديمة، والخزائن، والببغاوات الصغيرة، والقوارير المشروخة من أجل الحصول على المال اللازم لشراء آلات جديدة.

كانت الفرقة تنفق نصف ما يحصلون عليه من أموال على التيشيرتات ليهدوها لأوائل المعجبين بهم من الرجال والفساتين لمعجبيهم من النساء. احتفظوا بالنصف المتبقي في صندوق نقود كبير على هيئة وحيد القرن من أجل شراء آلات جديدة.

في ذلك الوقت، وربما لأنه كان يعزف موسيقى الروك مستعرضًا الجانب المتمرد من نفسه على المسرح، تورَّط «بروكوبييف» في إحدى الحوادث في الكلية. فقد قام برش مساعد أستاذه - الذي أصبح فيما بعد سفير «صربيا والجبل الأسود» في البلاد الأوروبية العظمى - بمسدس ماء.

كان «بروكوبييف» على وشك أن يُفصل من الكلية بسبب تلك الحادثة، لولا تدخل أستاذه القديم «نيستور» لحمايته وإعادته لمقاعد الدراسة مرة أخرى، لكن بالطبع ليس قبل أن يعاتبه بقسوة على فعلته. وبعد مرور عشر سنوات على تلك الحادثة، تكرر السيناريو نفسه، ولكن هذه المرة في مسقط رأس «بروكوبييف» عندما كان يعمل لصالح «راديو الدولة» ولم يستطع أن يتخلص من فيروس موسيقى الروك أند رول الذي يتملكه.

وبرابطة من محبي موسيقى الروك أند رول المحنطين، أنشأ «بروكوبييف» فرقة جديدة أسماها «فم لفم» Mouth to Mouth استطاعت أن تفوز بإحدى الجوائز في مهرجان شهير لموسيقى الروك، وقد قامت الفرقة بتأليف عدد من أفضل أغاني الروك وتسجيل أول شريط كاسيت لهم. لكن المؤسف في الأمر أن «بروكوبييف» تم فصله من عمله في «راديو الدولة» وقيل إن السبب هو ميوله «الأناركية الليبرالية» أو شيء من هذا القبيل. كل هذا كان جراء غش وتدليس واحتيال تم بواسطة «جوبلز» - مدير محطة الراديو وممثل منتج برنامج عن النحت الاجتماعي – الواقعي. والذي كان يتحرق شوقًا لكي يلقي به في الشارع. ولكن هذا الأمر سوف يتم مناقشته في موضع آخر.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أما الآن فدعونا نعود قليًلا إلى القصة الخيالية الخاصة بنا. انتقلت فرقة «صوت الشارع» لكي تتدرب في القبو الخاص بالقاعة البيضاء المستطيلة التابعة للمركز الثقافي للطلاب. بعض الطلاب «الدخلاء» كانوا يعزفون أيضًا هناك وكان يرتاد المكان بصورة متواترة عدد من الفنانين والكتَّاب. اعتاد «بروكوبييف» بعد أن ينتهي من حفلته، أن يظل مستيقظًا حتى الفجر لمناقشة موضوع ضرورة تجسيد مبادئ الثورة في الروح، وفي الأداء العام، وفي الإبداع، والابتكار.

بدأ «بروكوبييف» العمل في مجال جديد، ألا وهو نشر عدد من مقالاته في المجلات الأدبية المختلفة: على سبيل المثال، مقالات عن القصائد النثرية، والنثر الشعري، والانطباعات، والتعبيرات. كتب أحد أصدقائه من الأدباء في ذلك الوقت يقول:

«بقدر ما يعنيه الزمان والمكان، أنا و»بروكوبييف»، التقينا في فترة السبعينيات البعيدة في حجرة صغيرة كانت تضم المكتب التحريري لمجلة «الكلمة الأدبية» خلال فترة الازدهار الأسطورية لتلك المجلة وخلال أوقات الزهد البطولية للإبداع والفكر».

لكن هذه قصة مختلفة تمامًا ولكي نضع الأمور في نصابها الصحيح، لن يكون مقبولًا بالنسبة لي أن أروي الحكاية بهذا التفصيل المهووس لأنني واثق من أن «بروكوبييف» قد يصبح غاضبًا علي.

شيء واحد كنت متأكد منه: أنه على الرغم من أن «بروكوبييف» قد توقف عن ممارسة رياضة تنس الطاولة منذ وقت طويل، إلا إنه بدأ أمرًا جديدًا رائعًا، كما اعتاد أن يفعل في تلك الأمسيات بعد انتهاء اليوم الدراسي في المنتزه، بدأ في التهام الكتب وفي إسعاد نفسه بقراءة مختلف صنوف الآدب بينما نحن نناقش موضوع المنشطات. ونؤكد على حقيقة أن تدخين «الماريجوانا» كان منتشرًا على نطاق واسع بين عازفي موسيقى «الروك أند رول» وبين بعض منتحلي لقب «كُتَّاب» كانوا يدخنون هذا العشب في الحفلات.

كانت سيجارة «الماريجوانا» تمر بهدوء من فم للآخر على كل الموجودين بدخانها الخانق.

إحدى ربات الشعر، كاتبة طموحة، وصديقة لـ»ألن جينسبرج»، هذا الرحالة الذي كان يجوب العالم من الهند إلى باريس. تزوج «ألن» ثلاث مرات: مرة من امرأة يهودية، والمرة الثانية من سيدة بوذية، والمرة الثالثة من وثنية كانت تصطحبه من مقهى يسمى «الببغاء الذهبي» عبر الطرق حتى تصل به إلى شقتها من أجل أن يشربوا الحشيش معًا. وفي طريقهم، اعتادا اصطحاب آخرين كانت أعينهم مفتوحة، لكنهم في الواقع كانوا مستغرقين في أحلامهم من جراء تعاطيهم المخدرات.

وبعد وقت قصير، بدا الجميع متحابًا للحد الذي لا يستطيعون فيه في أغلب الأحيان التعرف على بعضهم البعض أو معرفة أين هم ولا من أين أتو.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كان «بروكوبييف على موعد مع المجهول قبل انقضاء سنواته التسع الحارة - الباردة التي قضاها في مدينة بلجراد.

بعد ذلك بربع قرن كامل تقريبًا، اكتشف «بروكوبييف» أن المجهول قد ظهر لكي يؤذيه مرة أخرى.

في إحدى المنافسات المقررة للحصول على جائزة أفضل رواية لهذا العام، كان «بروكوبييف» أحد المتنافسين، إلى أن قام هذا الشخص المجهول بإرسال عدد من الإيميلات لكل أعضاء اللجنة المنوطة بتقييم الأعمال المقدمة. قام فيها بتشويه «بروكوبييف» بصورة سيئة وبعدوانية بغيضة ووصفه بأنه شخص مثير للمشكلات.

كانت ردة فعل «بروكوبييف» سريعة وخاطفة: وقد تمنى على الفور أن يتمكن من أن يضع يديه على أحد الإيميلات وأن يبدأ في البحث من جديد لكي يبحث عن بعض التفاصيل الدقيقة، مثل أن هذا المجهول قد ضاعف أثناء كتابته الحروف اللاتينية في العلامة الصوتية المميزة وهو الأمر الذي

تفتقر إليه أغلب أجهزة الحاسوب العادية.» إس إس» بدًلا من «إش» و»سي» بدًلا من «تش». لا يهم، تمامًا كما كان الوضع في بلجراد في حقبة الثمانينيات بالنسبة «لبروكوبييف» والتي تمثّل له أولى تجاربه الصادمة مع المجهول. اللحظة التي بدأ فيها الصراع الحقيقي مع المشكلة. شعر «بروكوبييف» بتعب غريب يجتاح جسده. والصور الكابوسية (التي كانت تستدعي الذكريات عن طريق الخطأ) بدأت تفيض من جديد.

- هناك شخص ما على التليفون يريد أن يتحدث إليك!

نادى عليه رفيق حجرته «بودو» من الصالة، ثم أضاف قائلًا:

- لم يعرفني بنفسه.

كان «بروكوبييف» يتشارك مع كلٍ من «بودو» و»دوبراكا» شقة في شارع «جراشينيشكا» في وسط مدينة بلجراد. وكان رفيقهم الثالث «دوبريكا» يعمل وكيلًا لشركة «كولينسكا» ويحتل معظم الشقة - حجرتين ببلكونة - بينما «بروكوبييف» و»بودو» كان لكل منهما غرفة خاصة.

وعلى الرغم من كونها غرفة واحدة إلا إنها كانت واسعة وذات سقف عالٍ مما جعلهما يشعران وكأن كل غرفة من الغرف هي شقة مستقلة بذاتها.

- مرحبًا!

- نهارك سعيد. هل أنت «بروكوبييف»؟

- نعم، هذا أنا، من الذي يتحدث؟

- ....

- ومن أين تتصل؟

- من وزارة الداخلية؟

صمت كلاهما لبعض الوقت: كان «بروكوبييف» متفاجئًا، مأخوذًا بفكرة «لقد عثر علي! أنا ضعت». الطرف الآخر في المقابل كان ساديًا - على ما أعتقد - بسبب ردة فعله. كان شعور «بروكوبييف» بالخوف له ما يبرره: لأنه كان يقيم في مدينة بلجراد بصورة غير شرعية! مرت شهور قليلة على وفاة الرئيس « جوزيف تيتو» وبدا الأمر بعد وفاته الصادمة كما لو أن المدينة كلها أصبحت تحت المراقبة طوال الوقت ولكن دون أن يشعر أحد.

في البلديات، وبين الموظفين في الكلية، وربما بين النوادل في الكلية، جواسيس متنكرين متمركزين في مواقعهم.

حتى الموظف الموجود في قسم التسليم في مكتب البريد، ذلك الشخص الذي اعتاد الثرثرة مع «بروكوبييف» بمرح وسعادة كلما أتى ليرسل طرد ملابسه المتسخة إلى مدينة «سكوبيه»، لم يعد يثرثر بمرح وأصبح ينظر إلى الطرد وحسب في صمت.

- ولماذا.. لماذا تتصل بي؟

في ذلك الوقت، كان «بروكوبييف» بعيدًا تمامًا عن الفوضى والإزعاج العام الذي تبع وفاة الرئيس «تيتو»؛ وأصبح مهووسًا بعلم الفلك.

بشكل متزامن مع حفل التأبين الأسطوري الذي تم إهدائه للوحيد والأوحد الذي لن يتكرر.. قائد العالم، كان «بروكوبييف» على الجانب الآخر غير مهتم بما يحدث يلتهم الكتب والملخصات والتنبؤات الفلكية في أحلامه.

في هذا التوقيت، كان قد دخل أول فترة لزحل، التي هي وفقًا لمنطق الفلك، بداية المغريات الخطيرة في حياة الإنسان. وفي كل مرة كان يشعر فيها بالرعب، كان يتمكن من الخروج بفكرة أن كل ما يحدث له من مصاعب ومشكلات ومنغصات هي بسبب كوكب زحل السيئ.

- لا يمكنني أن أخبرك الآن. عندما نلتقي ستتضح أمامك كل الأمور.

- وأين من المفترض أن نلتقي؟

- أنصت إلي جيدًا. مكان اللقاء سيكون في متنزه الطلاب تحت النصب التذكاري «بانيتش». الموعد سيكون غدًا، نصف ساعة بعد الظهر.

-تقصد في تمام الساعة الثانية عشرة والنصف؟

- بالطبع، أنا من سيقوم بالاقتراب منك.

- ولكن، أنا... لا أعرفك.

- ما يهم هو أنني أعرفك! لهذا موعدنا سيكون غدًا، بعد نصف ساعة من الظهيرة.

بقي «بروكوبييف» مستلقيًا في فراشه يتقلب طوال الليل. تخيَّل أنه في مثل هذا الوقت غدًا لن يكون في شقته في شارع «جراشنيشكا» ولكن سيكون محتجزًا في حجرة من حجرات التحقيق غير المعروفة وحده مع بعض القضاة.

وجه القاضي - غير معروف - وهيئة المحلفين التي لن يستطيع أن يراها بسبب الضوء المسلط على عينيه بشكل مباشر. لقد كان متأكدًا من أن هذا كان سيحدث إن عاجلًا أم آجلًا، وهو ما جعله أكثر شحوبًا وخوفًا من المجهول الذي يختبئ في مكان ما في الظلام. هذا المجهول سوف يأمره بصوت مكتوم كما كان يفعل على التليفون، ولكن بصوت أعلى: «الرفيق «بروكوبييف»، قف! ما هي أقوالك فيما يتعلق بأنشطة التحقيق وشهادة الشهود؟».

«ليس لدي أقوال أخرى أكثر مما قلت أثناء.. الاستماع و.... أستميحكم عذرًا بسبب تقاعسي عن قول الحقيقة وتسجيل مقر إقامتي في شارع «جراشانيشكا».. لقد لاحظت خلال إدلاء الشهود بشهادتهم أنني.. ما كان يجب علي أن أتقاعس عن التسجيل، خصوصًا أن أرض أبائنا تمر بتلك المرحلة الحساسة.. على الرغم من رغبتي في ألا أبدو معاديًا لكم.. لم أكن يومًا عدوًا لأحد ولن أكون...».

من خلال استعراض الموقف:

«تقريرنا حتى الآن يفسح الطريق أمام الاستنتاج الذي نقر فيه أن الرفيق «ألكسندر بروكوبييف»، طالب الدرسات العليا في كلية علوم اللغة في مدينة بلجراد، متورط في أنشطة مثيرة للفتنة وأطلق عبارات مثيرة للفتنة خلال أشهر صيف ١٩٨٠ دعا فيها إلى تقويض دور الدولة والنظام الاجتماعي الخاص بجمهورية يوغوسلافيا الاتحادية الاشتراكية وقيادة بلادنا. ووفقًا لكونه بالغًا ومواطنًا مسؤولًا في جمهورية يوغوسلافيا الاتحادية الاشتراكية، بهذا يكون قد خان أرض آبائه الاشتراكيين وكسر يمين الولاء لرئيسه والقائد الأعلى، المارشال «تيتو»، وشعبه.

ولذلك، وعلى أساس وجود شبهة مبررة بأنه قد ارتكب عملًا إجراميًا، تقرر أنه سيبقى قيد الاحتجاز حتى إشعار آخر!!».

المدعي العام والجلاد

"المجهول"

هل لك أن تتخيل إلى أي مدى كان «بروكوبييف» مضطربًا وإلى أي مدى كان مقدار ما حظي به من نوم قليل، وكيف كانت حالته النفسية وهو يستقبل اليوم التالي وهو مثقل بالهواجس المقلقة التي سيطرت عليه، لكنه رغم كل الخوف والقلق، وصل في الموعد المتفق عليه ووقف أمام النصب التذكاري «بانيتش». يا ترى ما هو كم المشاكل الذي يمكن لهذا الرجل المجهول أن يتسبب في حدوثه لـ»بروكوبييف»؟ وما هو كم العقوبات التي قد ينزلها به بسبب الجريمة الشنعاء التي ارتكبها؟! وكيف تثنى لـ»بروكوبييف» أن يرتكب مثل تلك الحماقة وألا يسجل مقر إقامته.. وفي الوقت الذي مات فيه «المارشال»؟!

تجوَّل «بروكوبييف» حول النصب التذكاري لبعض الوقت، محدقًا في المارة مسرعي الخطى وفي الرجال المرتدين للقبعات الجالسين على المقاعد. وبعد مرور ٢٠ دقيقة وجد «بروكوبييف» نفسه وقد فقد السيطرة على نفسه واستوقف رجًلا يرتدي نظارة سوداء وممسكًا بجريدة في يده وسأله:

- هل تبحث عني؟

أجابه الرجل وهو ينظر إليه بازدراء:

- لا أعتقد ذلك.

انتظر «بروكوبييف» لنصف ساعة أخرى. لم يقترب فيها منه أحد. ولم يظهر ذلك المجهول القادم من وزارة الداخلية حتى الآن.

عاد «بروكوبييف» إلى شارع «جراشينيشكا» بوسط المدينة وقد حنى ظهره كأنما يتخفى كي لا يتعرف عليه أحد. بدأ رذاذ المطر ينهمر عليه وهو يسير في شوارع المدينة القديمة، لكنه سرعان ما تبخر بفضل شمس الصيف.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أحيانًا، وعلى الرغم من السعادة البالغة التي كان يبديها بها لمجرد كونه ما زال باقيًا على قيد الحياة، كان «بروكوبييف» يشعر بالصدمة بسبب شعوره المؤسف بأنه منفي في وطنه. ووجد أن أكثر شيء يساعده على التغلب على هذا الشعور هو السفر. فالسفر ينعش الروح، ولكنه أيضًا يصيب الأسنان بالعفن والتسوس.

فكل تلك التغيرات في الطعام، والماء، والمناخ، تؤثر على الأسنان وبالتالي ستكون الأسنان هي أول عضو صناعي يجب على «بروكوبييف» أن يزرعه في جسده.

وعلى الرغم من أنه مجبر على زيارة عيادة طبيب الأسنان بعد كل رحلة خارجية، إلا أن حماسته للسفر لم تفطر ولم تخبُ جذوتها، سواء كان السفر داخل أو خارج حدود الوطن. إن البعد عن المدينة لمسافة عشرة كيلومترات والاستمتاع بمشاهدة المناظر الطبيعية في الغابات، بل ومجرد التركيز على مشاهدة طائر صغير ينقر في العشب، قد يكون كافيًا في بعض الأحيان لأن ينعش روحه. في مرة من ذات المرات التي كان فيها «بروكوبييف» بالغابة دوَّن إحدى قصائد «الهايكو» اليابانية في دفتره الأخضر، كتب:

«أيها الجبل العاري

تملؤك الأشجار

على الرغم من اسمك».

«بروكوبييف» مقتنع تمامًا أن العزلة في الطبيعة تتغلب على الشعور بالنفي في المجتمع. وبعد مرور يومين أو ثلاثة من هذا الاختلاء، بدأت روحه تشتاق مرة أخرى للمتع التافهة وفوضى البشر والعودة إلى الاكتئاب، والأخطاء المعمارية الموجودة في مدينة «سكوبيه»

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كان «بروكوبييف» قد التزم لبعض الوقت تجاه إحدى المؤسسات الموجودة المحمية بجدران عالية وبوابات محكمة. لم يعرف بطريقة فتح البوابات سوى عدد قليل من الحراس يرتدون اللون الأبيض. أقام «بروكوبييف» علاقة صداقة مع الرجل صاحب «العين الثالثة» هناك.

على العكس من الرجال الآخرين أصحاب «الثلاث عيون»، لم يكن لديه عين إضافية في مقدمة رأسه ولكن في صدره، تخفيها بيجامته. وقد بقيت مخفية بالنسبة للآخرين. لقد كانت مخفية حتى عن رئيس الحرس الذي يرتدي زيًا أبيض ويدون يوميًا في دفتره الضخم كل الأسماء، والضمائر، والصفات، والأفعال التي يتفوَّه بها المسجونون. في وجوده، يصبح الرجل ذو «العين الثالثة» مرتبكًا تمامًا عندما يرى رئيس الحرس ويغمغم بمقاطع لفظية غير مترابطة وبكلمات سخيفة وعبثية مثل «فروبي»، «أهتروليو»، «جنيزدريت» أو «اسدرواو». دوَّن رئيس الحرس بمنتهى التحذلق تلك المقاطع الصوتية في دفتره، وهو يهز رأسه بتمعن وتفكير. لكن «بروكوبييف» كان مقتنعًا أن الرجل صاحب العين الثالثة كان يدَّعي بأنه بلا حول ولا قوة لكي يخدع بقية الحرس.

على الرغم من أنه لم يعترف يومًا بذلك، كان هناك العديد من الأشياء التي كان بحاجة لتعلمها! همس «بروكوبييف» في أذنه كي يشجعه على الاستمرار في إخفاء الحقيقة بالدرجة نفسها من الكفاءة والنجاح السابقة. ولكن الرجل ذا العين الثالثة نظر إليه بدهشة وتعجب وكأنه لا يصدق ما سمعه ورد عليه بمقاطع صوتية مثل «هيرك، هيرن، هيرد، كفا- كفا-كفا.. كفا». تعلَّم «بروكوبييف» من هذا الموقف أن الخواء الداخلي ليس بشعًا كما يبدو وأن القذارة ليست قذرة بالدرجة التي تبدو بها، وأن اللوائح التي تحكم لم توضع لكي تناقش ولكن لأجل الحصول على المتعة.

بذل «بروكوبييف» جهدًا كبيرًا كي يتابع كل الفاعليات التي تجري داخل المؤسسة والتي كانت تبدو كمشاهد مسرحية كُتبت بشكل رديء ومبتذل. كما لو كان العالم بأسره موجود داخل تلك المؤسسة وحسب، على المسرح. في وقت ثابت ومدة ثابتة ومحددة، وعندما ينتهي العرض، يسدل الستار وينحني الممثلون احترامًا للجمهور الذي هو «بروكوبييف»، والذي يمكنه بعد انتهاء العرض أن يذهب لينام. في هذه الحالة يصبح الحلم هو رحلة العودة إلى المنزل. نام «بروكوبييف» بعمق. نام لوقت طويل.

حلم بالرجل ذي العين الثالثة ذات مرة، لكن في الحلم كان الناس ينادونه بالمعلم «براهمابوترا» وكان قريب الشبه لدرجة كبيرة بالرجل العجوز الذي كان يرتدي عباءة أرجوانية سبق ورآه في حلم آخر منذ وقت طويل. على الرغم من أنه قد بدا أصغر بكثير الآن. الرجل ذو العين الثالثة، أو المعلم «براهمابوترا»، كان خطيبًا بارعًا ويتحدث بصورة واضحة مع الناس (الأمر الذي لم يثر دهشة «بروكوبييف» ولو للحظة) وكان يرتدي بدلة رياضية برتقالية اللون. وكان يجلس في الصف الأول داخل ملعب رياضي فارغ ويحفز الحضور الآخرين في الحلم على الاستمرار في ركوب الدراجات على المضمار الدائري.

كان »بروكوبييف» يقود دراجة قديمة وبالية ماركة «بوني» والتي كانت تصدر أصوات صرير كلما تحرك البدَّال. شعر بإرهاق شديد وإعياء كبير. «لا يمكنني القيام بذلك أكثر من هذا. يوجد الكثير من السواد بداخلي يثقل كاهلي ويمنعني من الاستمرار». اشتكى للمعلم «براهمابوترا» وهو يتصبب عرقًا. ابتسم المعلم «براهمابوترا» له من على المنصة. وقال له: «انظر بعمق وسوف ترى ما بداخلك. من وراء تلك السحب، يشع النور المشجع». أدر البدَّال، واستمر في ركوب الدراجة!

كان هذا على الأرجح في وقت مبكر، وأنت تغطس ثم ترتفع إلى سطح بحر أفكارك الطائشة وتحتل مساحات ما بين الحلم والحقيقة. أصبح «بروكوبييف» متأكدًا من شيء واحد: أنه على الرغم من كل الشقوق والثقوب والهاويات التي تسمم حياة الإنسان، فإن هناك دومًا طريق قد تبدو في بعد الأحيان كاملة، وفي البعض الآخر تكون عكس الكمال، فقط من أجل تطهير النفس البشرية مما يعلق بها من اهتزازات سلبية ناتجة عمَّا يحيط بك من أناسٍ مرتبكين. فضًلا عن شياطينك الشخصية؛ وهي في حالتنا هنا هي الكتابة. حتى ذلك الحين، كما سبق وذكرنا، فإن «بروكوبييف» قد بصر وخبر وأصاب بعض النجاحات في عالم الآدب، ولكنه أصبح مدركًا أنه يمكنه أن يقوم بعمل المزيد. ومنذ ذلك الحين - هل لك أن تصدق؟ - قام بإصدار أكثر من خمس عشرة كتابًا. لا داعي للتصفيق لو تكرمتم. لم تقُده كل طرقه إلى مكان ما في النهاية. لقد كان هناك بعد مقابلته للعديد من الطرق المسدودة. والبعض

الآخر يشبه السير في دوائر، ولكن هذا الطريق، كما قال «براهمابوترا»، لم يذهب سدى. ما يهم هو أنه يسير. أنا أسير، وأنت، وكل شيء يسير ويتحرك، نعم، نعم، نعم.

أحد كبار الشخصيات في مجمع «آلهة الأدب المحلي»، أكاديمي معروف بعبارته الشهيرة «كلمتي واحدة ونهائية غير قابلة للمناقشة» المعبرة عن توجهه. له كذلك العديد من أمثلة التكبر الأخرى التي صرَّح بها: «إن الأعمال الأدبية اليوم ما هي إلا مجموعة جوفاء من التبذير الفارغ». شعر «بروكوبييف» بالدم يفور داخله بعد أن دخل في حالة من الجدل اللفظي معه بالحماسة والتهكم نفسيهما اللتين كان يمارسهما في عراك الطفولة وكان غالبًا ما ينتهي به المطاف إلى أنف أو رأس مكسور. لم يستطيع أن يحتمل ورد عليه بصوت مرتفع جدًا: «يبدو لي بشكل واضح أنك قد توقفت عن القراءة!»

«هذا هراء!». صرخ الأكاديمي الكبير. «بروكوبييف» الذي، كما سبق واكتشفنا من قصته حتى الآن، أنه كان معتادًا الدخول في مشكلات عديدة مع بعض الشخصيات المحسوبة على السلطة ومع كل ما هو رسمي، اندفع خارجًا من الحجرة والغضب مرتسم على وجهه.

لكن «بروكوبييف» يعلم، أنه على الرغم من استعراضه المبرر، أن الحقيقة بشأن الكتابة الأدبية والقراءة في الوقت الحاضر، أصبحت تمامًا مثل موسيقى «الروك أند رول» التي تم اختصارها في فرق مثل «شوجربوب». والفيلم كعمل فني قد اختُزِل في نظارات «هوليوود» الغبية ذات الأبعاد المختلفة، والفن الذي أصبح مجرد قطع بلا شكل محدد، والأعمال الأدبية بتنوعها وثرائها قد تم اختزالها هي الأخرى في الدائرة الضيقة للكتب الأكثر مبيعًا لكتَّاب وروائيين مثل «كويلو» وأمثاله، و»أوج ماندينو»، و»دان براون». وفي مواجهة كل هذا الطمع الذي يسيطر على العامة الجائعين، يقبل معظم الفنانين أن يفعلوا أي شيء وإلا فعليهم الاستعداد للموت جوعًا.

التقى «بروكوبييف» بالعديد من هؤلاء الأدباء الذين يركضون بأعين لا ترى وراء هذا النجاح الزائف متناسين أن المعجزات لا تأتي بصورة ميكانيكية. منذ عشر سنوات مضت، عندما تفجرت حمى الإنترنت، أخبره صديقه «سيمون» عالم الفلك أن تنوع المصالح والتطابق بين المجموعات الاجتماعية المختلفة أصبحت حتمية وقد يؤدي هذا إلى خلق دوائر يتواصل من خلالها الناس أصحاب الاهتمامات المشتركة مع بعضهم البعض بأمان، تقريبًا في السر. اليوم، أصبح «بروكوبييف» عضوًا في أحد هذه الدوائر.

أما الأعضاء الآخرون في هذه الدائرة فهم يأتون تقريبًا من مختلف أنحاء العالم، وعلى الرغم من ذلك التنوع الكبير إلا أن «بروكوبييف» بات يشعر وكأنهم جيرانه في الشارع نفسه. فجميعهم يؤمنون - أو تقريبًا يؤمنون - بأن أحداث القصص الخيالية ما زالت ممكنة الحدوث، مع بعض التغييرات، سواء كانت كبيرة أو صغيرة. إلا إنها تبقى في النهاية ممكنة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنــــــاة

فهرس القصص القصيرة..